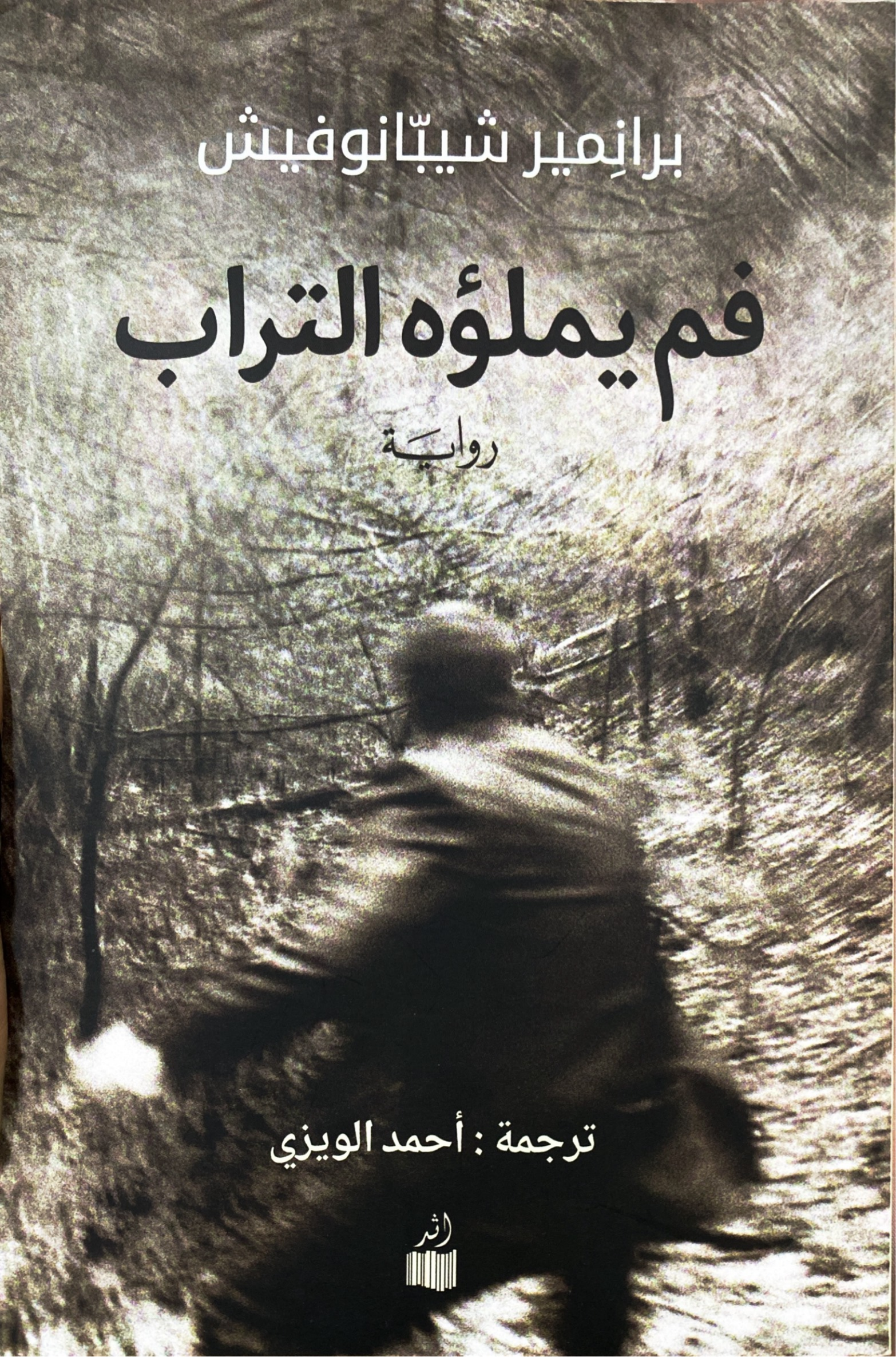
برانِمير شيبّانوفيش
فم يملؤه التراب
رواية
ترجمة : أحمد الويزي
أثر

تقديم المترجم:

1) ينتمي الكاتب الصّرْبي برانِمير شيبّانوفيتْش Branimir Šćepanović (1937/ 2020)، الى دائرةِ الأدب السْلاڤي Litté-rature Slave التي تتمَيّز عن بقية الدّوائر الأدبيّة الأوربّية الأخرى، بفتوحاتها الخَلاّقة لآفاقٍ مُتفرّدَةٍ في التّخييل، واختيار كُتّابها الكِبار في مقاربة موضوعاتِهم، لنَفَسٍ شِبْه ملْحميّ يعِزّ العُثور على نظيرٍ له، في بقية مناطق أوربا الغربيّة؛ الى جانب اشْتِمال تآليفِهم على عُمْق فكريّ أخّاذ، وتحليلٍ قويٍّ لاختلاجات الوجدان، ورَعشات الرّوح، وحركات النَّفْس البشريّة النّوّاسَة بين ثلّة من العَواطف، والمَشاعر المُتَنافر[1].

2) وُلِد برانِمير شيبّانوفيتْش بمدينة بودْگوريكا Podgorica (عاصمة إقليم مونْتِنيگرو[2])، وبعد استكمال دراسته الجامعيّة، التحق بمجال

---

(1) نذكر من بين هؤلاء، على سبيل التّمْثيل لا الحصر: إيفو أنْدريش Ivo Andric، ميروسْلاف كارليجا Miroslav Karleja، ميلوس تسيرنيانْسكي Milos Tsernianski، أليكساندر تيشْما Aleksander TiŠma، زيفكو سينكو Ziv-ko Cingo، فيدوسلاف ستيفانوفيتش Vidoslav Stevanovic،،، الى آخر اللّائحة.

(2) مونتنيغرو Monténégro (ترجمتها الحَرْفيّة: الجبل الأسود)، وهي جمهورية تقع في بلاد البلقان، وبالضّبط في الجنوب الشّرْقي من القارّة الأوربيّة؛ بحيث يَحُدُّها من الجهات الأربع: بحر الأدرياتيك، وكرواتيا، وصربيا، وألبانيا ثمّ جمهوريتا البوسْنة والهِرْسك.

الصّحافة الأدبيّة والفنّية، واشتغل ضمنه بتفانٍ وإخلاص، الى أنْ بلَغَ به العُمُر مرْحَلةً مُتقدّمةً. ويُعَدّ الرّجل اليوم، كاتباً معاصراً متعدّدَ المواهب بامْتياز، بحُكْم انْفتاح اهتماماتِه على أكثرَ من مجالٍ إبداعيّ، بما في ذلك الشِّعْر والقِصّة القصيرة والرّواية والمسْرَح والسّيناريو السّينمائي.

وقد بدأ شيبّانوفيتش مساره الأدبيّ في وقت جدّ مبكّر، حين نشر باكورة شعريّة، وهو ما يزال في السّابعة عَشْرة من عمره. إلاّ أنّ اسْمه لم يتكرّس نهائيّاً، بوصفه علامةً أدبيّة تؤشّر على موهبةٍ ثَرّةٍ في الأدب السلافي، إلاّ في سنّ الرّابعة والعشرين، حين أصْدَر مجموعتَه القصصيّة الأولى، سنة 1961، التي تحمل عنوان: *قبل الحَقيقَة* (Preistiline)؛ وهي المجموعة التي فرضَتِ اسْمه بالقوّة، ضمن نطاق الأدب اليوغوسلافيّ، وبوّأته مكانة تليق باسْمه الواعد، بين كوكبة الأسماء المكرّسة. لكنّ أهمّ مؤلّف نقله الى مرتبة العالميّة (بفضل جهودِ مُتَرجميه طبعاً، الذين وقعوا في حبّ أعماله[1])، هو

---

(1) لابد من الإشارة في هذا السّياق، الى أنّ المترجم الفرنسّي الرّاحل جان ديكا Jean Descat، هو من بين أهمّ المترجمين قاطبة، الذين كان لهم الفضل العميم في جعل اسْم برانمير شيبانوفيتش يُطَبّق بشهرته الآفاق، ويدخل طور العالمية من بابها الواسع. ويُعدّ جان ديكا بحقّ، البوّابة الفرانكفونيّة التي أفسحت المجال واسعاً، أمام أغلب نصوص شيبانوفيتش الأدبيّة، حتّى تمتدّ، وتنتشر خارج بلاد البلقان. وتتميّز ترجمة ديكا على وجه التّحديد، الى جانب دقّتها وانْضباطها المشهود بهما للرّجل، بكونها ترجمةً إبداعيّةً مدهشة، استطاعتْ جعل قُرّاء اللّغة الفرنسيّة يتفاعلون مع نصّ من طينة جديدة، كُتِب بنَفَس إبداعيّ قويّ الى حدّ أقصى. وقد بقي جانْ ديكا وفيا لنصوص شيبانوفيتش، حتى عُدّ مترجمه الرّسمي الى الفرنسيّة. وإليه بالذّات، يعود الفضل في هذه التَّرجمة الحاليّة، التي نقدمُ عليها اليوم، يحذونا الأمل في أن تكلّل جهودنا بالتّوفيق والسّداد، حتّى نعطي بذلك نصّ شيبانوفيتش، انتقالا نوعيّا الى دائرة ثقافتنا العربيّة القادرة على إكرام الأدب الرّفيع، وإيلائه المكانة المميّزة التي يستحقها.

روايته القصيرة: ***فمٌ يملؤه التّراب*** (Usta puna zemlje)، الصّادرة عام 1974.

وتُعدّ ***فمٌ يملؤه التّراب*** بحقّ، عملا تخييليّا مدهشا، وتحفةً أدبيّة متكاملة الأوصاف، سرعان ما تلقّفها القُرّاء بشدّة وإعجاب، فصدرتْ في أكثر من طبعة محلّية، ثمّ امتدّ تلقّيها الى أبعد من حدود يوغوسلافيا، بفضل ترجمتها الى لغاتٍ أجنبيّة عديدة (باستثناء العربيّة، للأسف!)؛ لما تحْبَل به هذه النّوفيلاّ المكثّفَة والغنيّة، من عناصر القُوة والنّضْج الكبيريْن، ولما تحمله بين أسْطُرها من أبعاد ومواقف «فكريّة وفلسفيّة»، تتجاوز الحدود الجغرافيّة لبلدها الأصليّة، وتمنحها أفقاً كوكبيّاً خالصا، يتّصل رأسا بالوَضْع الإنسانيّ قاطبة.

3) يتميّز إنتاج برانِمير شيبّانوفيتش الأدبيّ على العموم، بخاصّيات جماليّة متعدّدة ومتفرّدة، أهمّها سِمة التّكثيف والإخْتزال، التي جعلت صاحبه يختار دوما، نوعا من الكتابة المَضْغوطة الى أقصى حدّ، مقتصرا في ذلك على نصوص قصيرة، سواء في مجال الرّواية أو غيرها[1].

ورغم ذلك، تمكّن شيبّانوفيتش من فَرْض اسْمِه بقوة، بفضل تفرّد أسلوبه في كتابة الجملة السّردية، التي عادةً ما تكون مشْبعة عنده، بشاعريّة تَشُوبها روحٌ ملحميّة نافذة؛ وهي الفرادة التي تكشف بالملموس عن موهبة فذّة، يرْفُدُها تصوّرٌ «فكريّ/ فلسفيّ»، غالباً ما يُقدّم فيه هذا الأديب، تمثلاتٍ ملغِزَةً وغامضةً عن الإنسان والعالم والوجود. وقد اعتبر البعضُ

---

(1) ينبغي لي أن أشير الى أنّ برانِمير شيبّانوفيتش قد كتب القصّة أيضا، وتميّزت بعض قصصه بالطّول، مثل النّموذج المدهش الذي نقدّمه ضمن هذا المؤلّف، بعنوان: موت السيد كولوجا. أمّا أهمّ مؤلفاته التي اطّلعنا عليها لحدّ الآن، في الترجمة الفرنسيّة، فهي إجمالا: ما قبل الحقيقة (مجموعة قصصيّة، 1961)، صيف الخِزْي والعار (رواية قصيرة، 1965)، **فمٌ يملؤه التّراب** (رواية قصيرة، 1974)، موت السّيد كولوجا (مجموعة قصصيّة، 1977)، الفِداء (رواية، 1980).

ذلك، بمثابة صيغة ساخرة من الكينونة، بينما تلقاه آخرون على أنّه ينمّ عن ارهاصات أوليّة، تدمج في صوْغ عجيب، بين عناصر الفلسفة الوجوديّة وتيار العبث. في حين اختلف الكثيرون اختلافا بيّنا، بشأن تفسير أسرار هذه الكتابة المُلْغزة، وتأويل مغالقها الغامضة[1].

ولعلّ السّبب في كل ذلك، يكمن في اسْتدماج نصوص الكاتب لصُوَرٍ ونماذِجَ، بعضها مستقْطَعٌ من الواقع، وبعضُها الآخر ذو طبيعةٍ شبْهُ ملحميّةٍ؛ لتشبّع شيبّانوفيتش بنفحاتٍ شعْريّة وفنطاستيكيّة، تُقَرّب نتاجَه الأدبيّ من حدود الغرائبيّ المُلْهِم والمُبْهَم، على نحو كبير؛ ما جعل هذه النّصوص تبدو، في مجموع المقاربات النّقدية الفرنسيّة، التي اطّلعْتُ عليها أنا، على الأقلّ، وكأنّها محكياتٌ رمزيّةٌ شبيهةٌ حينا بالأليغورْيا allégorie، وحينا آخر بالأمْثولَة الخُرافيّة parabole، خاصّة منها تلك المُشْبَعة بمُسحة أسطوريّة ودينيّة.

إنّ العالم الذي يصوّره شيبّانوفيتش، ويحرص باستمرار على تقديمه، سواء في مجمل قصصه أو رواياته، هو عالم يتمّ تَقْديمُه في العادة، على أنّه مسرحٌ لمواجهاتٍ ضاريّة، تقوم في الأغلب الأعمّ بين طرفين متناقضيْن، قد لا تَجْمَع بينهما أيّة رابطة سابقة: يمثّلُ الطّرف الأول مجموعة أشخاص، تحمل قيماً يمكن اعتبارها قيمَ المجتمع (أو على الأقل، قيَمَ إحدى جماعاته، أو طوائفه)؛ بينما يُمثّل الطّرف الثّاني الفرْدَ الأعْزَل، الذي يتمّ النّظر إليه والى سلوكه، وردّات فعله العفويّة والتّلقائية، نظرةً تَعُدُّه مارقا متمرّداً، خرج عن

---

(1) ترجى مراجعة الدّراسة النّقْدية، التي ذيّلْنا بها هذا الكتاب، وهي بعنوان: جدل الضّوء والعتمة، لكونها تلخّص أهمّ ما عرفه مشْهَدُ تلقّي نصّ برانمير شيبانوفييش في الأدب الفرانكفونيّ، إبّان ثمانينيّات القرن العشرين، وما بعدها. ولهذه المقالة فضلُ تجميع شتات عدّة دراسات مهمّة، حاولت في وقت سابق، تأويلَ نصّ: فم يملؤه التّراب، بعد صدور ترجمته الفرنسيّة، سنة 1975 وما بعدها.

قِيَم الجماعة/ المجتمع. ومن خلال هذه النّظرة المُحاكِمَة، يلتزم الطّرف الأول بالتّصَدي لعصيان هذا الخارج الآبِق والمارِق، بعُنْف وشراسة وحِقْد أيضاً، فيُعمّق بذلك أزمة الفرد الأنْطلوجيّة، ويخلق في نصّ شيبّانوفيتش ما تُسَمّيه الفلسفة الوجوديّة بـ: ***أزمة سوء الفهم***. ومن ثمّة، سرعان ما تنتهي هذه المواجهة الضّارية، في سياقات سوء الفهم المتنوّع والمتعدّد والعجيب، إمّا الى موت الفرد (قتله)، أو الدّفع به الى إماتة نفسه.

وبذلك، تسمح أطوار هذه المواجهة العنيفة، في نصوص الكاتب، بتسليط الضّوء على الدّواخل النّفسية، التي عادة ما تصبح متقلّبة ومسْتَعرّة وعنيفة، والكشْفِ عمّا يجول في قرار الشّخصيات الفاعلة والمنفعلة، من مشاعر وعواطف مُحتدّة ونوّاسة، تنتقل بين عدّة مواقف وحالات، في لحظات وجيزة؛ الأمر الذي يجعل هذه النّصوص، تُحَفا فنيّة سابرة بعمق للأغوار، وفاحصة للمُحْتَجب الخفيّ، فتصل في هذه الإختبارات الغائرة للنّفس الغرّارة، الى الكشف عن جوهر الوجود الإنسانيّ، من خلال محكيات سرديّة مشْبوبة بعُنْف مزدوج: خارجيّ وداخليّ، يشدّ القارئ من خِناقه، ويفْرِض عليه ألّا يبقى مُحايدا ولا جامدا.

4) وبعْدُ، لم يتبقَ للمترجم أيُّ شيْءٍ ليُضيفه الآن، على حاشية هذا المتن المتميّز، اللّهم أن يأمل في أنْ يتكلّل مسعاهُ بالتّوفيق والسّداد، وهو يحاول نقل هذه التُّحفة الأدبيّة الرّفيعة الى القارئ العربيّ، نقْلا يزعم فيه، بأنّه عَمِل كلَّ ما وسعه عمله، حتّى يُحافظَ في ترجمته لها (والترجمة مثلما يعلم الجميعُ، بقَدْر ما هي عَصِيّةٌ وشاقّة، هي أيضا شيِّقَة!)، على حرارتها وروحها الشّاعرية الآسرة، وعلى نفَسَها شِبه الملحميّ.

... قراءةً ممتعة!

أحمد الويزي / يناير 2020

فمٌ يملؤه التّراب

رواية قصيرة

جامديْن ومُطرقيْن كُنّا، حين اضْطجعنا وسط عتمة تلك اللّيلةِ الأغْسُطُسيّة، وقد تدثّرْنا بألحفة الصّوف الخشنة، وكأنّما ثَملْنا بفعلِ نفاذِ رائحةِ الغاب الحرّيف، التي بدتْ مع انفتاح الخَيْمة، شبيهةً بثعبان طويل أسود. متعبيْن بالفعل كُنّا، وراغبيْن في النّوم.

كان جالساً يُبَحْلق في ظُلمةِ ليل أَغُسْطس الرّحيبة، وسَط عربةٍ مُخْتنقة بالمسافرين، في القطار رقم 96؛ لكنّه لم يتبيّن أيّ شيء. ظلّتِ النّافذةُ المستطيلة، التي اصْطبغ زجاجُها بأدْخِنة القطار، تعكسُ صورةَ وجهه المُنْطبعة بعلامات الإنْهاك الشّديد وحسب، الى أنْ بدتْ له أشبه بصورةِ وجهٍ آخرَ، غير وجهه. ابْتسم لهذا الوجه، إنّما دون لُطْف ولا رقّة، وكأنّ سخريتَهُ من نفسه كانت مسْبوقةً بقرار عودته الى مونتينگرو، بعد غيابِ سنواتٍ عنها، حتّى ولوْ تيقّن – على نحو كبير جدّا – من أنّ ما من أحدٍ، سيبتهج لرؤيته، أو يتعرّف عليه، على الأقلّ. إنّما لو استطاع أنْ يستعيد فقط، من بين أتون تلك العتمة التي انطمس بين جنباتها كلُّ شيء، بضْعَ صُوَر من ذكريات طفولته، مثل وجهٍ من الوجوه التي اختفت، أو صوتٍ لم يُسمع من زمنٍ بعيدٍ، لاستطاعَ ربّما أنْ يستوعب ذلك القرار المفاجئ، الذي دفع به الى شدِّ الرِّحال الى مسقط رأسه، لمُلاقاة الموت هناك. لكنّه لم يقْوَ على تذكّر أيّ شيء. لم يعد يذكر أيَّ شيء!

ومع ذلك، تأخّرنا في الخُلود للنّوم، دون أن نعرف لهذا سبباً واضحا. لم نكن مُنْزعجيْن بتاتا، ولا مُشَوشيْ البال، مثلما لم يتملّكنا الخوفُ بالمرّة، ولا الارتيابُ أو عدم الإرْتياح. على العكس، فنحن لم نكن في هذه البلدة الموحشة، التي عادة ما نقصدُها كلَّ صيفٍ، لقضاء بضْعة أيام بين ظهرانيْها، نتلكّأ في نسيان همومنا والتزاماتنا أبداً، ولا في نسيان روتين الحياة المملّة، التي توزّعنا بين البيت والمكتب والمقهى. كما كنّا نترك نفْسَيْنا، بعد التّحَرر بشكل ما من كلّ عبْءٍ، تتشبّعان بسلام غير قابل لأيّ تفسير، تقريبا. لذلك، بلغنا في الأخير هدفنا المنشود، بعد رحلةٍ طويلة، قطعنا بعضها بالقطار، وبعضها الآخر سيْراً على الأقدام، مسافة ساعات، اجْتَزنا خلالها أراضٍ وعرة. وحين صرنا وحيدين، وسط هذا المنظر الطّبيعي المُقفر، داهمنا ما يشبه موجةَ صمتٍ زرقاء، وإحساساً بسلام مطلق، ماثَلَ بين مزاجيْنا وفكريْنا، الى أن صار بمستطاع كلانا، حزر رغَبات الآخر ونواياه في كلّ لحظة، دون الحاجة حتّى الى أنْ ينبسَ أيٌّ منّا بكلمة. لذلك، عَمَدنا ربّما، الى الصّمت.

حاول فتح النّافذة، لكنّه توقّف بعد عدّة محاولاتٍ يائسة، واسْترخى من جديد فوق المقعد الدّافئ والمتّسخ. ثمّ انتهى بعد أنْ تفحّص في الظّلام، بشكل يائس، الى تمييز بعض الأضواء النّابضة في قلب تلك العتمة البعيدة، وكأنّها كانت تنوس هناك، بفعل هَبّات الرّيح المتردّدة. ولّدَ فيه هذا المشهدُ التّافهُ، والمبتذلُ، والخالي من أيّ معنى، شعوراً مُلتبساً أقنعه بأنّ ما رآه، لم يكن في الحقيقة سوى العالم بأسْره، وقد بات يمضي متوارياً، في الأفق البعيد. ملأتْ هذا الفكرة - على نحو غريب! - أعماقه بالفرح. وعلى إثرها، ذهب به الأمر حدّ الرغبة في الانكباب بسرعةٍ، على تمييز الصّمت الذي قد يرين، بعد زوال كلّ شيء وانتهائه بالاضْمحلال، خلف طَقْطَقة عجلاتِ القطار الفولاذيّة، لتصير الأمور وكأنّ لا شيء وُجد، بالمرّة. ودون أنْ ينشغل بأيّ تفكير، ظلّ

يترقّب - وهو جامد - أنْ يُغَشّي ذلك الشّعورُ على كيانه كلّه، ليُبْعِدَ عنه التقلّص الأخرق، الذي قلّصَ منه البلعوم: سيكون بمستطاعه التّخفي فيما بعد، بين عتمة الممرّ أو حتّى بين المراحيض، ليبكي ما شاء له الهوى أنّ يبكي. وبعد إفراغ ما بجعبته من كَرَب، وتصفية دواخله، يمكنه - وقد صار مثل أيّ شخص، تخطّى فترة الحداد، أو أذعن لمشيئة الموت - أنْ يضع على وجهه بعدئذ، قناعَ اللّامبالاة الكئيب، الذي من شأنه أن يحميَهُ من فضول النّاس، ويقيه خاصّة من إشفاقهم المخادع. لكنْ، بقدر ما أجهد نفسه ليطرح عنها اليأس، حتّى يُعجّل بالتّخَلص من أسره، بقدر ما كانت ثمّة قوةٌ مجهولة، تنبع من أعماقه، وتعْتَرض على ذلك، بعناد غريب. اسْتَنْشق رائحةَ عفونةٍ ناجمةً عن العَرَق البشريّ الحرّيف من حوله، وقد التصقتْ بها روائحُ نقانق وثوم وخبزٍ سِلْت فاغم؛ وعوض أنْ يتناهى الى سمعه الصّمتُ المريب، الذي ترقّبَه من قبل، سمع صدى مَضْغ مُكَثّف صادر عن بقية المسافرين، الى جانب أصواتهم الخافتةِ وضحكاتهم المخنوقة، وذلك ما دعاه بإلحاح شديدٍ إلى الإنْضمام الى لَغْوهم العقيم. بل ذهب به الأمر في إحدى اللّحظات، حدّ الشّعور بالجوع، فأحسّ على إثر ذلك، بالخجل: ربّما أدرك بأنّ غريزة الجوع، لا تؤكّد له إلاّ بكيفية أقلّ مجْداً، بأنّه لم يدفع عنه دفعا لاواعيّا، في مثل هذه الظّروف، سوى المحاولات التي تدعوه كلّها الى النّظر جيّدا في الحقيقة الرّهيبة، التي تنتصب ماثلة أمامه. ثمّ إذا بيَدٍ ثخينةٍ تمتدُّ نحوه في تلك الأثناء، هي يدُ الجالس قُبالته، الذي قَدّم له، دون أيّ كلام، قطعةَ خُبز محشوة بشريحة نقانق. شَكَره بابتسامة غامضة، ارتسمتْ على شفتيه، وانخرط مباشرةً في الأكل، دون أنْ يجدَ في الوهلة الأولى في فمه، أيّ طعم مُميّز لذلك الطّعام. وبعد ذلك، شعَر بما يُشبه الغثيان، فخرج من العربة. اتّجه صوب نهاية الممرّ، وفتح النّافذة، ثمّ قذف بالطّعام الممضوغ الى الخارج، وعَبّ بملء فمه المفتوح، نسمةَ هواءٍ منعشة نثرت فوقه بعض الزّند، ثمّ بعض الرّماد. كان عاجزا تماما، عن ضبط مقدار

الوقت الذي قضاه في القطار، وتوقّع السّاعة التي سيصل خلالها، الى جبال مونتنيگرو. واعْتقد في غُضون لحظة، بأنّ ذهنه توقّف عن الاشتغال، بشكل تامّ. بعد ذلك فقط، أدرك بأنّ القطار توقّف عن سيره، في محطّة صغيرة مجهولة الاسم، فرأى امرأةً مُزارعة ببِنْية قويّة، تحمل عدّة أكياس ملوّنة، وتركض بكيفية خرقاء، على امتداد العربة. وحين عَبَرت بالقرب منه، اشتمّ في الهواء رائحةَ قشدة حامضة وجبن، لكنّ الشّعور بالجوع لم يعاوده. لم يعد يشعر بأيّ شيء. مدّ ذراعه فجأة، وأمسك بالمقبض النّحاسي، ثمّ خرج بتثاقل الى الفضاء المظلم، دون أن يكون قد فكّر في ذلك، من قبل.

كُنّا ما نزال - إياكوف وأنا - صامتيْن، نثبِّتُ أعينَنا في شِهاب ناريٍّ، انْفلَتَ ببطء، وتردّد من بين العتمة، كما لو كان عصفورا ضلّ الطّريق. وبينما كان يهوي مباشرةً في اتّجاهنا، بدا لنا على نحو غامض، في تلك الأثناء التي سينطفئ فيها ضوؤه المخاتل في بؤبؤ أعيننا تحديدا، بأنّا سنغرق في النّوم والنّسيان.

ظلّ يتتبّعُ ببصره، وهو واقفٌ فوق حصى الرَّصِ، موسّعاً من فُرْجة رجليْه، ذلك الخيطَ الضوئيَّ الذي شَطر السّماء نصفين، ثمّ توارى بسرعة، ليختفي عن نظراته، وسط عتمة اللّيل. وبالتفاته صوب المدى البعيد الكامد، ذلك المدى البارد المُتعذّر بلوغه، الذي بعث له مع ذلك ما يُشْبه بعض الصدى الخفيّ، عبر ضَجّة سكّة الحديد القريبة من قدميه؛ بدا كمَنْ تشوّش ذهنُه، وكأنّ ذلك النّجم المنفلت أخذ معه شيئا مهمّا الى أبعد حدّ، شيئا يعِزُّ عليه تذكّره، أو كأنّما هو ندم على شيء ما. لم يعلم أين كان يتواجد، ولا الى أين سيذهب، ولا ما الذي سيفعله. كلّ ما علمه فقط، أنّه لن يرى بعدُ، هذه

القرى المونتينيگريّة الصّغيرة أبدا، هذه القرى التي عاش بين أرجائها سابقاً، بعضَ السّعادة والشّقاء؛ لأنه غاص بنظره في تلك الأثناء في أعماق نفسه، وكأنّه يغوص بها في أعماق اللّيل، ثمّ أخذ يودّع العالم برمّته، دون أيّ دمع.

حين أعدنا فتح أعْيُننا، لم نعرف بالتّحديد، كمْ وقتاً استغرقناه في النّوم. مكثنا لبرهة صامتيْن، فانْتابنا في خضمّ ذلك الصّمت المذهل، الذي خيّم على تلك اللّيلة الأُغْسُطسيّة، شعورٌ خاصّ أكّد لنا بأنّا الكائنان الوحيدان، اللّذان يتواجدان في هذا العالم. بعدها، فتح إياكوف بابَ الخيمة، بحركة مفاجئة، فأخذ يستنشق الهواء القادم من الخارج، بملْءِ رئتيه. «في ماذا تفكّر؟»، سألته بصوتٍ مهموس. «في لا شيء. أنتظر بزوغ النّهار»، أجابني. وكان بياض الفجر فعلاً، قد أخذ يلوح. ولم تتوقّف السّماء عن التّخفيف من دِثار دُكْنتها في الأفق البعيد، حتّى بدا ذلك الدّثار أشبه في رقّته، بنسيج رماديّ شفّاف.

مع مطلع النّهار، توقّف لاستعادة أنفاسه. لم يدْرِ كمْ وقتاً استغرقه في السّير، وسط تلك العتمة المغلّفة للحقول التي عَبَرها، ولا كان يعرف الى أين تقوده خُطاه. إلاّ أنّه في المقابل، تأكّد من أنّه أحسن صُنْعاً بالتّرَجل من القطار، والنّزول في تلك المحطّة الصّغيرة. لقد أصاب الإختيار فعلا، حين أذعن لرغبته الجامحة في الفرار، تحت جُنْح الليل، الى أبعد نقطة ممكنة، هرباً من البشر، ومن كلّ ما بمقدوره الدّفع به، ولو للحظةٍ واحدة، الى البحث عن مساعدة أو عزاء. فهو لمّا وجد نفسه يقف، في فورة اضّطرابه الذّهني، وسَط خطوط سكّة الحديد، وبراميل القارّ، وصناديق الخشب، أراد أن يفرّ فقط، كيفما اتُّفِق، وأنْ يبتعد عن النّاس وبقية العالم، الى أنْ يتيقّنَ من أنّه انفصل عن الجميع تماما. لكنّه لم يكن يذعن للحقد، ولا للكراهية أو الغلّ. أراد أن

يوفر على نفسه فقط، جميعَ أنواع الإذلال التي قد يتعرض لها بكيفية ما، سواءٌ بالتماسِ الشّفقة والرّحمة من الآخرين، أو الإضطرار الى القبول بهما. وبقدر ما باتَ ليلته يخبط، وسط عُتْمة اللّيل، مدفوعا بالرّغبة في الذّهاب الى حتفه في مكان خالٍ وصامتٍ، وكأنّه حيوان في حالة احتضار، بقدر ما أجهد نفسه للتّعود شيئاً فشيئاً، على فكرة خَفِيَة تسببت له أول الأمر، في الخوف والخجل: أفضلُ ما يتعيّن عليه القيام به، هو أنْ يجدَ في نفسه الشّجاعة الكافية، ليقدم من تلقاء نفسه على الموت. ثمّ توقف، وهو متعبٌ ولاهثٌ، وسطَ غَبَش الضّوء المتولّد مع بداية انْبلاج النّهار، فاستطاع أن يتبيّن في البعيد، كتلةَ الغابة الدّاكنة، وفي الخلفية الأبْعد قمماً جبليّةً مسنونةً، تشبه كثيرا قممَ بريكورْنيتْسا، حيث فكّر لأول مرّة هناك في الموت، بصفته خلاصا، خلال تلك اللّيلة المشؤومة التي مضتْ عليها، ثلاثون سنة. بالطّبع، لا يمكنه أن يصدّق بأنّ مَيْلا ما فطريّاً غامضاً، هو ما ساقه الى هذه المنطقة الجبليّة، حيث عاش طفولته. إلاّ أنّه يعلم الآن، بأنّه سيحقّق تلك الفكرة، التي سبق لها أن راودته، منذ عهدٍ بعيدٍ: شنق نفسه على شجرة، تنتصب وحيدة في الخلاء، أو القذف بنفسه في اتّجاه هاويةٍ، ظلّ فراغُها القاتم والمفتوح، ينتظره على الدّوام. لم ينتبه حُيال هذه الفكرة، أيّ خوف ولا إحباط، أو يأس. شعر في قراره بالطّمأنينة والتّلاؤم التّامين مع الذّات؛ ثمّ اسْتَنشق الهواء النّدي ملء رئتيْه، وأصَخّ السّمع للطّيور غير المرئيّة، التي كانت فوق رأسه تشقشق في الأعالي.

كُنّا جالسيْن فوق العشب المنتشر أمام الخيمة، نتناول طعامَ الفطور الذي يتكوّن من بيض وسَمن، بينما أرْجُلنا مشتبكة بقرب دائرة النّار العَطرة، التي كانت تطِقُّ وسطها، أعوادُ الصّنوبر الجافّة. كُنّا منهمكين في الأكل، على غير عجلة من أمرنا، ودون لهفة، ونحن نتلمّظ بمتعةٍ طعمَ كلّ مُضْغة. وحين

ابتلعنا آخر قطعة من الخبز المغموس في السّمن، مسحنا أيدينا في طراوة العشب النّدي، ثم هَبَبْنا واقفيْن، لتفقُّد ما يجري في الجوار. بدا لنا المنظر الطّبيعي، الذي شرع يتحرّرُ من أسر الغمام شيئا فشيئا، أمام أعيننا، بأنّه تغيّر مقارنةً مع ما كان عليه الحال، في الصّيف المنصرم. في الشّمال، يقع شريط الغابة البنفسجيّ؛ وفي الطّرف السّفلي البعيد، وراء تموّج النّهر الأزرق، تتبدّى للعين الضّفافُ شديدة الانْحدار. نقّلنا أعيننا بين الوادي والغابة، ونحن نسعى جاهديْن للكَشْف عن طبيعة التّغَير الطّارئ، الذي حال منذ البدء بين صورة ذلك المنظر البسيط والمألوف، وبين الصّورة الأخرى التي ظلّت محفوظة عنه في ذاكرتنا، بشكل سليم. كان ثمّة بين الصّورتين حقّا، شيءٌ من الإختلاف. وما إنْ لمحنا في النّهاية، كتلة آدميّة كانت تشخص لأعيننا في البعيد، حتّى أدركنا بأنّها هي التي عكّرت صفاء هذه البلدة المقفرة، وأربكت تناغمها المألوف لدينا. كان ذلك الشّخص الذي تراءى لنا، مثلَ نُقطةٍ سوداءَ غامقةٍ. شبيهاً الى حدّ ما بحشرة عملاقة، كان. توقّف في مكان غير بعيد عنّا، فأدركْنا من خلال حركة كتفَيْه، وقبل أنْ يتسنّى له حتى النّبس بأيّ سؤال، بأنّه لم يتوقّف تحديدا، إلاّ بِنِية مُبيّتة.

بعد أنِ انْدهش كثيرا، من كونه لم يعدْ وحده، لم يستطع إزاحةَ نظراته عن ذيْنك الغريبيْن، اللّذيْن ذكّره وجهاهما الدّسمان، وقبعاتاهما المزيّنتان بشعارات مثيرة للضّحك، بشكل لا يُقاوم؛ بأولئك المسافرين الذين تواجدوا من قبلُ، على متن القطار الذي فرّ منه، وبكافة أولئك الذين أمل في عدم مصادفتهم، بشكل مطلق. نكّس نظراته في اتّجاه أقدامهما، التي اختفت بين الأعشاب، فأبصر ما تناثر فوق الأرضية العَشِيبة، من قشور بيض، وأوراق جرائد منْبَعجة، وعلب مصبّرات فارغة، ومقلاة اسْودّ لونها من أثر السُّخام.

وكان هناك بالقرب من بندقيتيْ القنْص وقصبتَيْ الصّيد، مذياعٌ صغيرٌ لم يكسر صوته بعدُ، غلالةَ الصّمت التي ظلّت تغلّف دائرة الصباح؛ فتهيأ له أنّه سمع إيقاع تنفّسهما، يتصاعد بشكل متساو. كان بودّه أن يقترب منهما، أن يلتمس منهما بعض الطعام، أن يتوسّل إليهما ليدلاّه على الطّريق المفضي الىَ أول حافلة، أو قطار. كان هذا الإحساس، الذي عَفّى على قراره الحازم بالذّهاب الى ملاقاة الموت، أشدَّ إلحاحا عليه حدّ أنّه تأكّد من أنّه قد يذعن له، لو لم يُكرَه على الرّجوع على عقبيْه فوراً، والشّروع في الفرار. وإذا به يحس بأنّه شارف على البكاء، وهو ممزّق بين هذه الرّغبة الجديدة، التي انتابته، وبين البقاء على النّهج الذي اختطّه لنفسه، في السّابق. وحتّى يتحمّل ضعفَه المفاجئ، رفع عينيه باتّجاه السّماء، وكأنّه يتضرّع إليها، فركّز انتباهَه كلّه على العصافير الرّماديّة المرقّطة بالسّواد، التي كانت تمضي في كلّ لحظة، ثمّ سرعان ما تضمحلّ مثل البخار، بين صفحة السّماء التي تورّد لونها، وكأنّ تلك العصافير كانت رجماً فوق رأسه. وذهب به الأمر الى الحدّ، الذي بدا معه، وكأنّه يستمتع بذلك المشهد. لكنّه لم يكن سوى يجمع شجاعته، كلّ شجاعته، ليعود على أعقابه، متراجعاً الى الخلف.

وبينما ظلّ يقيس قامتيْنا بنظراتٍ، يتعذّر على المرء تحديدَ طبيعتها، لم يقو إياكوف ولا أنا، على النَّبْس بأيّة كلمة، ولا التّفكير في ما ينبغي فعله. ربّما انتظرنا منه الخروجَ عن الصّمْت، أو التّظاهُرَ بالإقْتراب منّا على الأقلّ، حتّى يُضْفيَ على ذلك اللّقاء غير المتوقّع بيننا، مظهراً طبيعيّا وعاديّا أكثر. لكنّه على غير المُتوقَّع، ارتدّ على أعقابه، ونزل المنحدر يركض، بعد أنْ حرّك رأسَه مثل حصان شُدَّ بلجام، ثمّ شرع يخبط الأرض خبطا، ويدوس بشكل عشوائيّ على العشب.

حين شرع في الرّكض، تلقّى أشعّة الشّمس ملْءَ عينيه، فسيطر عليه الإعتقادُ الذي يفيد، بأنّ ذيْنك الرّجليْن يتتبّعانه بعيونهما، لا محالة، ويتساءلان عمّا يدعوه للرّكض، فجأة؛ وهو كالأعمى تقريباً، يتعثر بين العُشب السّميك، الذي بلّله ندى الفجر.

كُنّا ننظر إليه في صَمْت، ونتساءَل عمّا حذا به الى انتهاك تلك العادة القديمة، التي تَفْترض أنْ يُمْضيَ النّاسُ بعضَ اللّحظات على الأقلّ، فيما بينهم، عند لقاء بعضهم البعضَ، في منطقة مقفرة مثلُ هذه. لكنّ هذا لم يشغل بالنا، بالمرّة. إذ أنّنا لم نكن متواجديْن هنا، لرؤية النّاس ولا للالتقاء بهم. لذا، لم يحرّكنا حُيال ذلك الرّجل، أيّ نوع من الاهتمام، ثمّ إنّا انْتهينا - حتّى ولو بقي هو يلتفتُ إلينا برأسه، لبعض اللّحظات - إلى نسيان هيئة وجهه، على نحو تامّ. لبثنا ننظر إليه، وهو يبتعد بخُطى مُتعثّرة، ويحرّك ذراعيْه بكيفية مرتبكة، الى أنْ كدنا - لو أزحنا الطّرْفَ عنه - أنْ ننساه، في تلك الأثناء.

لم يتملّكه الخجلُ أبداً، وهو يُطْلق ساقيْه للرّيح. فقد فعل نفسَ الشّيء مساءَ اليوم السّابق، بعدما ولج قاعة الحراسة بإحدى عيادات بلغراد، وكان مُسْتنفذ الجُهد، بسبب الأرق والملل، ومُتَضايقا من اضطراره الى البقاء هناك، لأجل إجراء فحوصاتٍ جديدةً، بخصوص آلام معدته؛ فإذا به يُبصر بمحض الصّدفة، فوق الطّاولة التي تناثرت فوق سطحها، أشياءٌ كثيرةٌ في ما يُشْبه الفوضى: ملخّصَ تاريخ مرضه. فأدرك من خلال كلمات لاتينيّة مختزلة، بأنّه لم يعد يملك سوى أشهر قليلة. ومنذ ذلك الحين، ظلّ يهرب، دون أن يعرف لهذا، سببا. فهو لا يتذكر - صراحةً - بماذا شعر، حين اطّلع على ما اطّلع عليه. ربّما لم يشعر بأيّ شيء، على الإطلاق. كلّ ما يدريه

أنّه خرج في عزّ اللّيل، بشِبْشِبه ومنامَتِه المُشرّبة برائحة حُزن، اختلطتْ فيها رائحةُ العَرَق برائحة الأدوية، فطفق يركض وسط العتمة، عائداً الى شُقّته بزقاق بيرتشانينوفا، حيث أغلق البابَ عليه بالمفتاح، وأمضى نهار اليوم الموالي برمّتِه، محاولاً أنْ يَطْرُد من أمام عينيْه، صورةَ جسده المتفسّخ والمنذور للتّحَلل، وسط دوامة الآلام والرّوائح العطِنَة. وعبثاً حاول أنْ يُجْهد نفسه، كي يبكي، لعلّ الدّمع يخفّف عنه كثافة ذلك المشهد الرّهيب. ثمّ فكّر بعد ذلك في والديْه، اللّذين ماتا منذ عهدٍ بعيد، وفي طفولته ومسقط رأسه، فانْقَشعتْ عن عينيْه إثر ذلك، تلك الغشاوةُ الرّهيبةُ التي ظلّتْ لصيقةً بهما، وكأنّهما تعرّضتا لإضاءة، خَلّصَتْهما من ذلك. ربّما هذا ما حذا به للإلتحاق بالمحطّة فورا، وحشْر نفسه في أول قطار يتّجه الى مونتينگرو، كي يبحثَ له عن السّكينة والسّلوى. لكنّه أدرك فجأة، خلال اللّيلة السّابقة التي هي ليلة سفره، وسط تلك العتمة الرّحيبة والباردة، وهو محاط بمسافرين ينزّون بعرق حادٍّ، ويأكلون، ويغنّون، بأنّ عليه أن يكون وحيدا في الموت، الذي غدا منذ ذلك الحين، يقينَه الأوْحَد. لذلك، أطلقَ ساقيْه للرّيح، بعد أنْ جمَعَ قوته وشجاعته كلّها؛ ثمّ انتهى به الأمر، وقد عثر على ذيْنك الصّياديْن بالصّدفة، الى التّيقُّن من أنّ عليه، إذا أراد الحسم مع القَدَر (بوصفه رجلا)، أنْ يتخلّى عن كلّ ما يربطه بالوجود! والآن، فإنّ ما يحاوله حقيقة، وهو يتدحرج نازلا عبر ذلك المنحدر المُعْشَوشب، هو الفرار من نفسه، بالذّات. كان في كلّ خطوةٍ يخطوها، يصارعُ ضدَّ إغراء التّوقف، والعودة الى ذينك الغريبيْن: أليستِ العنايةُ الإلهيّة هي التي وضعتهما في طريقه هناك، لجعل ذلك اليوم الذي هو دون أدنى شكّ يومه الأخير، أقلَّ قساوةً وضراوة؟! وحتّى لا يذعن، أو تلين قناته، فيميل إليهما، أجْهَد نفسَه كي لا يفكّر سوى في تلك الشّجرة اليتيمة، التي نمت في الخلاء لأجله، وفي تلك الهاوية التي ظلّت تنتظره هناك، في البعيد.

فجأةً، انطلقنا وراءه سويا، وقد اسْتسلمنا لإغراء الحركة الذي لا يقاوم. تمّ ذلك بكيفية غير متوقّعة، وكأنّا تواعدنا عليه. أردنا أنْ نُفْهِمَه فقط، بأنّ ما كان إلّا أحمق، وهو يهرب منّا، وأنّا لا نلتمس في حال ما إذا كانت لديه بعضُ المشاكل، سوى أن نقدّم له يد المساعدة. كانتْ تحرّكُنا اتجاهه باختصار، نوايا حسنة. أردْنا أنْ نُجَنّبه الظّهور بمظهر المثير للضّحك والشّفقة، الى أبعد حدّ. بالطّبع، أردنا كذلك أنْ نُصَفّي دواخلنا، ونتخلّص أيضاً من تلك المشاعر المزعجة، التي نجمت عندنا (وإنْ بكيفية لا إراديّة)، حين رأيناه يضطر الى التّصَرف أمامنا، بتلك الكيفية الغريبة.

حين الْتَفَتَ الى الخلف بالصُّدْفة، فقط، دون أدنى حَدْس ولا توقّع مسبق منه، لمح الرّجُليْن يركضان وراءه. ظنّ للوهلة الأولى، بأنّ عينيْه اللّتَين هيّجَهما ضوءُ الشّمس البنفسجيّ المفرط، قد خدعتاه، وجعلتْ ظلّيْهما على هيئة بشريّة مُتَحرّكة. الْتَفَتَ مجدّداً، بغية التّخَلص من ذلك الشعور الذي أثقل على نفسه، فجأة. ظلّ يركض، وهو ينظر الى الخَلْف، الى أن تيقّن من أنّ الرّجليْن كانا بالفعل يركضان خلفه، على بُعْد مسافةٍ محدّدة.

لم نَجْرُأ على رفْع عَقِيرتيْنا بالصُّياح، كيْ نطلبَ منه التّوقُف والتّعقُل، لأنّا نعرف بأنّ صياحَنا لن يزيد سوى في هلعه: إذ بالنّظر الى ما أبان عليه سلوكه، من خفّة وعدم اتساق، لن يذهب ذهْنُه سوى الى الإعتقاد بأنّا نُهَدّده، أو نحاول الإيقاع به في كمين. لذلك، ركضْنا خلْفه في صمْت، ونحن نُحاول بكلّ ما أوتينا منْ جُهْد، لنُقَلّص من نسبة المسافة الفاصلة بيننا، التي كانت تُقَدّر بما يعادل كيلومترا كاملا. وفي لحظة ما، وَدّ إياكوف لو أنّا توقفنا، عن الرّكض. «لنتركه وشأنَه، قال. ما أهميّة كلّ هذا؟!». إلاّ أنّي اعترضتُ

عليه، قائلاً: «انتظرْ قليلا. فنحن أسْرَعُ منه. لذا، ينبغي أنْ نَصِلَ إليه، كي نَسْتَوضحه!».

تساءَلَ عمّنْ يكون هذان. فلباسهما، الى جانب قُبّعتَيْهما والبندقيّتَيْن وعتادِ الصَّيْد والخَيْمة، أشياءٌ تشير كلّها الى أنّهما من أهْل القَنْص، أو مجردُ سائحيْن يتنـزّهان. لكنّ هذا لم يُقْنعه، لبساطته المفرطة ومنطقيته الزّائدة عن اللّزوم. أراد أنْ يَعْرف عنهما المزيد. إذ مهما اعتقداه بشأنه، على إثر ذلك اللّقاء السّريع الذي رماه في دربهما، فإنّه رغب في فهم ما الذي يشعران به الآن، وهما يعدوان خلفه. إلاّ أنّه لم يجد لتساؤلاته جوابا شافيا، فرفع (مكرها تقريبا)، من إيقاع الرّكض.

ركَضَ بأسْرع ممّا ركض في البداية، جاعلاً هيئته تميل كلّها الى الأمام، وكأنّ قوّة خارقة، وأعْتى من الخوف تدفع به من الخلف، دون أن تسمح له بالإلْتفات الى الوراء، ولا التّوقف، أو حتّى تقويم وضع هيئته. ومع ذلك، انحنى في لحظة معينة بقامته الطّويلة كلّها؛ فلمحنا حينئذ، قبعتَه الكبيرة ذات اللّون الفاتح، التي أمسك بها بيده اليسرى، حتّى لا تضيع منه، بعدما كان يَعْتَمرها في البداية، تَتَعَرّض لأشعة الشّمس المائلة، وتصير مثل هالةِ ضوءٍ مشتعلةٍ؛ وعلى إثر ذلك، تهيّأ لنا بأنّ هذا الرجل غريب الأطْوار، إذا ما استمرّ يعدو بتلك الطّريقة، فإنّه سيُضْرم النّار في كافّة سيقان السّرْخس، التي يدنو بسرعةٍ هوجاء منها.

اعْتَقَد بأنّ هذين الرَّجُلَيْن تمكّنا من الكشف عن نيته، بناءً على ما ارْتَسم على وجههِ قبل قليلٍ، فقَوّى ذلك من قناعته التي تفيد، بأنّه تَصَرّف بحكمة.

إنّ هذين الغريبيْن، اللّذين نسي حتّى هيئتَهما الظّاهرة، يُشَكّلان خطراً تَعَيّن عليه الفرارَ منه. ومهما يكنْ، فقد صار من اللاّزم ألّا يترك لهما فرصةَ اللّحاق به، مخافةَ أنْ يُقَوّضا من عزْمِه، أو يجعلانه يحيد عن هدفه، أو حتّى الوقوف دونه.

آنئذ، بدا لنا بأنّ سرعةَ عَدْوِه انْخفضت، نسبيّاً. فصار بمقدور المرءِ أنْ يَسْتَنتج من هذا، بأنّه تعب. لكنّ هيئتَه الطّويلة والغامقة أوحت لنا، بلامبالاة غريبة، وكأنّه تأكّد من عدم استطاعتنا اللّحاق به، أو أنّه نسيَ بالأحرى، حتّى وجودنا. في كلّ الأحوال، هو لم يَبْدُ لنا خائفا، بل بدا من المستبعد جدّا أن يكون خاف منّي، أو من إياكوف؛ الأمر الذي صار يعني بأنّ جميع الأسباب، التي دفعتْ بنا الى ملاحقته، غدَتْ واهية. لذلك، كان بمقدورنا العودة الى خيمتنا فوراً، وتناول القَصَبَتيْن، والنّزول الى ضفّة النّهر. إلا أنّ إياكوف خطرت بباله، على حين غِرّة، فكرةُ أنّ هذا الرجل ليس فارّا، وأنّما هو يُلاحق أحدَهم، فقط. «لكنْ، يُلاحقُ مَن؟»، أجبته باستغراب. «أيّا كان. إنسانا، أو فراشة من النّوع النّادر. ماذا سيُغَيّر هذا في الأمر؟». ورغم أنّي حاولتُ عبثاً، اعتبارَ هذا من الأمور المستحيلة، إلّا أنّ إياكوف لم يتنازل عن فكرته. كنّا متفقيْن تماما على أنّ هذا الرّجل، الذي يرتدي بذلة مدينيّة، ويعتمر قبعةً كبيرة بلون فاتِح، لم يكن قناصا ولا من أهل الرّيف، ولا سائحاً أيضاً خرج في نزهة، إذ لم يكن معه متاعٌ، ولا حتّى مجرد خُرْج صغير؛ ما يعني أنّه لم يكن مسافرا إذن، ضَلّ الطّريق. فمَنْ يكون، يا ترى؟ وأية صدفة خارقة قادته لينتصب أمام خيمتنا، فجأة؟ ولماذا فرّ هاربا، إنْ لم يَخَفْ مِنّا؟ كانت هذه الأسئلة تهيّج دواخلنا. وغالبا ما توقّفنا لاستعادة النّفس، والنّقاش بيننا. «ربّما هو أحد المحكومين بالأشغال الشّاقة، هرب من السّجن؛ أو مجرم مطارَدٍ يختفي من العدالة؛ أو ربّما أخطر من ذلك: ممسوس عقليّا، أو جنديّ هرب من الخدمة،

أو جاسوسٌ يريد عبور الحدود!». انفجرتُ ضاحكا. «كلامك متهافت وغير منطقيّ، يا صاح! أنتَ تعلمُ جيّدا بأنّ عليه في هذه الحالة، أنْ يفرّ سريعا باتّجاه الغابة، أو الجبل». «معك حق، قال إياكوف متنهّداً. إنّه ما زال يركض في خطّ مستقيم، وكأنّه أعمى!». صمت لبضع لحظات، كمن يُفَكّر، ثمّ أضاف بعدها: «إنّما، ما الذي دهاه؟! إنّه مجنون!». «من يدري؟ قلت. ربّما هو مجنون، بالفعل. أو ربّما خنقه فيْضُ السّعادة، فحاول بهذا التّخلص من ذلك الإحساس القويّ جدّا! بالمناسبة، حين نلحق به، سنكون واثقين من أمره!». بقي إياكوف متمسّكا بفكرة التّوقف عن المطاردة، لكنّ عنادي لم يلن. «أتتخلّى عن المتابعة؟! ألا تحدوك الرّغبة في معرفة ما الذي به؟»، قلتُ كي أحفّز همته وهمّتي معا.

ورغم كلّ ذلك، رغب في التّوقُف فوراً، لإشباع فضوله: إذا لم يشرحا له من تلقائهما، وبسرعة، ما الذي حذا بهما إلى اللّحاق به، فسيسألهما عمّن منحهما حقّ اقتحامهما عليه حياته، أو بالأحرى مماته.

أردنا الآن، أن نتثبّت فقط من أمره. فرأينا بأنّه إذا كان يتمتّع بحقّ الفرار، دون سبب معقول، فمن حقّنا تعقّبه؛ وإذا لم يشعر بالحرج جراء استثارته لفضولنا، فلن نشعر بالحرج نحن أيضا، ونحن نشبع منه فضولنا المستثار. ثمّ تابعنا المطاردة، ونحن نقتفي أثره المتموّج بشكل واسع، بين أهداب السَّرْخس المذهّبة، التي وصلَتْ بطولها حدّ أكتافنا، وقذفتْ وجهيْنا بقطراتِ ندًى شفافاً ومعطّرا. حينها، توقّف. وكأنّه تنبّه الى أنّا لن نعدل عن ملاحقته بسهولة، ثمّ التفَتَ ببطء، الى ناحيتنا. لكنّا، واصلنا الرّكض للحظة، ونحن نندفع في اتجاهه بإيقاع سريع، ونندهش لذلك التّغير غير المنتظر، أكثر ممّا كنّا مرتاحين له.

انتظرهما. كان يتنفّسُ بصعوبة، بينما العَرَق يُغرق وجهَهُ المُصْفَرّ تماما، بسبب التصاق غُبار الطّلْع على صفحته. لم تتحرّك مشاعره؛ ظلّ ينظر إليهما يقتربان، وهما يُحَرّكان الأذرع بين نبات السّرْخس المتطاول، بطريقة تشبه حركات الحصّادين أو السّباحين، ولم يكن يعبأ إطلاقا، بما سيحدث له بعد لحظة.

رأيناه يرفع يده اليسرى فوق الرّأس، ويدفع بالقُبّعة ناحية القفا، كاشفا عن أعلى الجبين الذي سطع كلّه، بفعل العرق؛ بعد ذلك، شبك ذراعيه فوق الصّدر، وبدا بمظهر المُصَمّم على مواجهة كلّ ما قد يَعْرض له. يا للمسكين! ما سيعرض له هو وصولنا وحسب، أنا وإياكوف. ونحن معا، لا نريد به أيّ سوء. نريد استفسارَه عمّا به فقط، ومعرفةَ ما إذا كان يعاني من أيّ مشكلٍ أو مضايقة، وما إذا كان بالمستطاع مساعدته. وإذا كان كلّ شيء على ما يرام، فسنتركه يواصل طريقه بسلام. ولأنّا حريصان على إظهار حُسْن النّية حُياله، توقّفنا عن العَدْو على مَبْعُدة ثلاثين مترا منه، حتّى يكون بمقدوره التّأكُد من أنّ فضولنا المشروع، لا يحول بيننا وبين التعقّل، والظّهور بمظهر الرّصانة والتّكَتم.

كان ينظر إليهما، وكأنّه لا يراهما، وكأنّهما هما لم يكونا سوى بُقْعة أخرى، من ذلك المنظر الطّبيعي الذي كانت تستريح عيناه، بين أحضانه.

إلاّ أنّا شعرنا بوجوب الإقتراب منه بسرعة، قبل أنْ يغدو هذا الصّمتُ المُحْرجُ والمتوتّرُ غيرَ محتمل، بصفة تامّة. ومع ذلك، مكثنا جاثميْن في مكاننا بشكل متحجّر، كما لو تعرّضنا الى تنويم مغناطيسيّ، بفعل نظراته المبهمة والمغيّبة.

في الواقع، حاول فحص وجهيهما الشّرسين، وحَزْر السّبب الذي أقعدهما دون الوصول إليه. إذ بعد كلّ تلك المطاردة الضّارية، لم يكن بمستطاعه الإعتقاد بأنّهما احتارا في أمر مواجهته، فأقصى بذلك فرضيةَ تردُّدِهما، بدافع الحيطة أو الخوف، في اجتياز مسافة العشرين قَدَماً التي ما تزال تفصله عنهما، وهما على ما هما عليه، من قوةٍ وسلاح.

لو دلّنا وجهه على شيْء ينمّ عن فضول، أو ربّما عن بعض الهلع، أو الفرح، أو حتّى بعض المعاناة، لسَهّل علينا ذلك أمرَ الإقتراب منه. لكنّ ذلك الوجه بدا لنا، أشبه بقِناع أبيضَ جامدٍ، ليس خلفه سوى الفراغ: لا فكرةَ تبْعَثُ فيه على الحياة، ولا إحساس اسْتطاع أن يعيد إليه ألوانه. ظلّ متحَجّرا بشكل تامّ، دون أيّ شيءٍ يفيد بأنّه سيخرج من غفلته، أبدا.

حينها، شعر بشكل غريزيّ، بأنه صار يرتبط مع هذين الرّجليْن برابطة غريبة، لا فكاك منها ربّما. رفع رأسه باتّجاه السّماء، وهو مرتبك، وشرع في فحص صفحتها لفترة طويلة، وكأنّه يبحث في تلك المرآة غير المحدودة، عن الإنْعكاس البعيد والمُبْهَم لذكريات، من شأنها إسْعافه في القَبْض على تلك الرّابطة، أو على الأقل اسْتِنطاق معناها. إلاّ أنّ نظراته التي تاهتْ بين ضفاف الأعالي الشّفيفة، لم تصادف سوى عصفور فريد، كان لواقعيّته أبْعَدَ منْ أنْ يُسْعِفه بالتّفاؤل أو التّشاؤم.

رأينا يديه تهبطان مرّة أخرى الى مستوى الجذع، ونظراته التي تاهتْ للحظة في المدى البعيد، تعود لتركّز مجدّدا علينا. تبيّن لنا فيها الآن، مقدارا

معينا من الوقاحة والخُبْث، وربّما بعضُ الإزدراء الذي لم نكن نستحقه. «تبّا! أرأيتَ كيف أخذ يتبوّل أمامنا؟! همس إياكوف قائلا. إنّه يعلن بذلك عن ازدرائه لنا!». «على العكس، قلت. إنّه يَسْتفزّنا. يحاول استثارة غيظنا، أو الإستهزاء منّا!».

تهيّأ له بأنّ وجهَيْهما ارتسمتْ عليهما الآن، ملامحُ تنمّ عن الخديعة والجبن. وكيفما كانت النوايا التي حرّكتهما، فإنّ رغبته في الفرار تغيّرت في الحال، الى إحساسٍ مفاجئٍ بالتّقزز والنّفور، بفعل ما أوحتْ له به نظراتهما الماكرة، وتَنَفّسهما السّريعَ والمنتظم، ومجموع النّهم الذي ظلّ يُقرأ في أعينهما. لقد كانا أشْبه بضبُعيْن خائفيْن وحذريْن، اشْتَمّا بلا شكّ رائحة موته. حدجهما لبعض الثّواني، دون أن يعرف ما العمل، لأنّه لم يعد يعتقد بأنّ لديه ما يكفي من القوة، للهرب منهما.

وكأنّه استشعر بأنّا سندنو منه في كلّ الأحوال، فعاد الى الرّكض مجدّدا. لكنه أخذ يركض في اتّجاه الغابة الآن، بخطو سريع ومنتظم، وكأنّه حيوان!

دار في خَلَدِه، وهو يلهث، ويترنّح من العياء، بأنّ ما زال في جعبته ما يكفي من القوة، لبلوغ تلك الغابة البنفسجيّة النّابضة بالحياة، التي ستجعله بعيدَ المنال.

صار لنا سببٌ معقولٌ الآن، يُسَوّغ لنا ملاحقته. ذلك ما أدركناه في الحال، دون أدنى تردّد: نحن لم نعد مدفوعيْن بالفضول المبتذل والمثير للسّخرية،

وإنّما بما لحق كبرياءنا من إهانة. لقد أرَدْنا أن نثبت له بأنّه ليس أسرع منّا، ولا أوقحنا، ولا حتّى أشْجَعنا. أردنا باختصار، أنْ نُجَرّده بسرعة، من تلك الرّغبة التي تملّكته، ودفعتْ به الى ازدرائنا.

حين التَفَتَ الى الخَلْف مرّة أخرى، ليرى ما إذا كانا يتعقّبانه من جديد، بدَوَا له أكبر وأقوى، وحتّى أسرع ممّا ظنّه في البداية، لأنّهما لم يعودا ربّما يتقلّدان البندقيتيْن، وإنّما يُمْسكان بهما في يدهما، ويوجّهان ماسورتيْهما في اتّجاهه. واصل الرّكض دائما، وهو ينتظر أن تتناهى الى سمْعِه طلقاتُ النّار. إلّا أنّ لا شيء من ذلك حصل. بعدها، انحنى قليلا الى الأمام، فتزحلقتْ قبّعته، وبقيتْ معلّقة في الهواء، تتطاير كفراشةٍ بيضاء. ضاعف من جهده، وهو حاسرُ الرّأس، ومُتَحرّر اليدين. لكنْ، ليس الخوف هو ما دفعه الى ذلك، لأنّه لا يبَالي بأنْ يطلقا عليه النّار، لأنّه في كلّ الأحوال لم يرغب سوى في الموت. وبالتالي، فإذا كان يهرب، فلأنّهما الآن من يريد اللّحاق به، مهما كلّفهما ذلك من ثمن، وكأنّهما يملكان الحقّ في هذا. لذلك، أراد انتزاع هذا الحقّ بالذّات، منهما. أن ينتزعه، على سبيل التّحَدي!

عاد للأسف، يتقدّمنا بمسافة لا يستهان بها مرّة أخرى، حتّى صار من المستحيل اللّحاق به، قبل الوصول الى الغابة. فكّرنا في إطلاق النّار في الهواء فعلا، حتّى نرغمه على التّوقف، لكنّا سرعان ما استبعدنا هذه الفكرة: فإنْ شعر بأنّ حياته يتهددها الخطر، سيزيد لا محالة من إيقاع الرّكض، على نحو أسرْع. فماذا بالمقدور فعله؟ أنْ نأمل في أنْ تزلّ قدمُه، لتنكسر ساقه؟ أو أنْ يهويَ بكامل ثقله وطوله على الأرض، من شدّة الإنهاك والتّعب؟ لا! لم نكن نأمل في تحقق هكذا معجزات. وإنّما أدركنا من ناحية أخرى، بأنّ عنادنا

جعلنا نبدو، في مرآة نفسيْنا، كائنيْن مثيريْن للسّخرية، فلم يعد بمقدورنا التّوقف بالكلّ، بعد ذلك.

«ربّاه! فكر في قراره. امنحني القوّة، لألتحق بهذه الغابة. فخلاصي سيكون فيها!».

لمحنا راعياً، لا يملك - للغرابة! - صدريةَ فَرْو، ولا عصا. مثلما بدا لنا بأنّه لا يملك حتّى الكلب، كذلك. أمّا قطيعه الصّغير الذي يتكوّن من بضع شياه مجزوزة الصّوف، فبلا أجراس. مكث الراعي واقفا هناك، وكأنّا لم نُثِر فيه أيّ فضول. بدا لنا كمَن يستغرق في نوع من اللّامبالاة المزمنة، ويندمج في سكينة لا نفع فيها، ولا تماسك. كان في جموده وصمته، ينظر نحونا بهيئة شخص، لا يفهم أيّ شيء ممّا يقع، ولا يرغب مطلقا في معرفة ذلك. وبعد أن بلغ منّا اليأس مبلغا كبيرا، لرؤيته لا ينضمّ إلينا، رفعنا عقيرتَيْنا بالصّياح فيه، إياكوف وأنا، ونحن نردّد بلسان واحد: «أمسك به! إلْق عليه القبض! لا تتركه يدخل الغابة!». إلاّ أنّه بقي جامدا، لا يبالي بصياحنا. ثمّ إذا به ينطلق نحونا، فجأة، محاولا - لفرحتنا العظيمة! - قطعَ الطّريق المُفْضي الى الغابة، على ذلك الشّخص المنفلت منّا.

حين أوشك على بلوغ الغابة، التَفَتَ الى الوراء مرّة أخرى، فأبصر شخصاً يُلاحِقه من أحد جانِبَيْه، ويوشك أنْ يقترب منه. ورغم أنّه لا يحمل أيّ سلاح، إلا أنّه بدا أخطر من الرّجُلين الآخرين، لأنّه كان يصيح صيحاتٍ متقطّعةً، تشبه النّحيب، ويلوّح بذارعيْه فوق رأسه، ويكشف عن ملامح غضب بارزة. تساءل، وقد انحرف جهة اليسار، لينفلت من قبضته: أيُّ قدَر أخرق

ألقى بهذا الشّخص الثالث أيضا، في طريقه؟ وما سبب انضمامه الى ذيْنَك الآخرين؟ ولماذا أبان عن كلّ تلك الفظاظة الزّائدة، وهو يحاول الإمساك به؟ أيكون ربّما اسْتنتج، حين رآه فارّا، بأنّه مؤاخذ بجريرة ما؟ وهل اسْتخلص كلّ ما استخلصه، من مجرد رؤيته يركض فحسب، أمْ احتفظ بذلك الى وقت آخر؟ مهما يكنْ، فهذا الرّجل الثّالث أيقظ فيه الوعي بالخطر المداهم، الذي بات يُحْدِق به، ويَتَهَدّده منذ وقت. وتأكّد له بأنّه إذا كان مصمّما على الموت، فإنّ ذلك لا يعني أنّه غير مكترث بالطّريقة، التي سيموت بها؛ إنّه لن يترك نفسه عُرْضةً للإذلال والمهانة، مثل أيّ كلب، أو يتمّ التّمْثيل به بطريقة وحشيّة، من طرف هؤلاء المجانين المسعورين؛ لا يمكنه حرمان نفسه من العزاء الوحيد، الذي فَضُل لديه: أنْ يختار بنفسه المكانَ والتوقيتَ الملائمين لموته، وكذا الظّروف المواتيّة لذلك. لهذا، لن يسمح لأيّ شخص بتلويث اللّحظات الأخيرة، من حياته. عليه أن يحافظ على شرف موته. إنّه بحاجة الى أن يكون وحيدا. إنه يودّ لوْ ودّع العالم، وهو هادئ البال، ومطمئن، وصافيّ الرّوح والقلب. أن يودّع هذا العالم عديم الشّفقة والرّائع معا، الذي لم يتعلّم التّعرف عليه بكيفية جيّدة. ينبغي أن يودّعه بحبّ، لا بكراهية! فظلّ، وهو منشغلٌ بكلّ هذه الأفكار، يركض بشكل سريع جدّا، لأنّه لم يعد يستمدّ قوته من التحدّي، وإنّما من أجمل وأعمق مشاعر اليأس، التي لم يسبق له أن شعر بها من قبل، مطلقاً.

ورغم الجهود الجبّارة كلّها، التي بذلناها، إلّا أنّه اختفى فجأة، مثلما تختفي السّحْلِية بين الأشجار، التي كانت ثخينة وذات أغصان وأوراق مهتزّة. وعلى إثر هذا، لم يتبق لنا بعد تجرّع ما يكفي من مشاعر الخيبة والخجل، إلاّ التّوقف عن المطاردة والتخلّي عنها، نهائيّا. ذلك ما كنّا سنقوم به بالتّأكيد، لولا أنّ الرّاعي تدخل، وأعْلَمنا بأنّه على معرفة دقيقة بأشدّ تقعّرات الشّجر صِغرا،

وأدنى كهوف هذه الغابة ومغاورها تقلّصا، وبأصغر حزّاز من حزازات الصّخر حجما. وقد ذهب في تأكيده حدّ القول، بأنّ بمقدوره العثور على أيّة بومة أو ثعلب، مهما بلغ حجمهما، وبأنّه لن يجد أدنى عَنَت في الكشف عن مخبأ ذلك الهارب الظّريف، الذي أفلت منه بأعجوبة، خلال فصل الربيع الماضي، بعد أنْ فتك عن سبق إصرار وقصد، بكلبه المنحدر من فصيلة العُسْبور. تبادلنا بيننا النّظراتِ، إياكوف وأنا، دون أن ننْبُس بأيّة كلمة، ثمّ سرنا وراء الرّاعي الغاضب، ونحن مقتنعان بأنّ ذلك الذي نبحث عنه، قد يَكون اقترف بشكل ما، جرائمَ أخطر من مجرد قتل كلب. أضف الى ذلك، أنّ هذا الرجل - مهما يكن - فإنّه مدين لنا ببعض التّوضيحات. إنّنا أهل شرف ونخوة وسلام، وبقدر ما نحن على أتمّ الإسْتعداد لمدّ يد المساعدة للمحرومين، بقدر ما نحن على استعداد لترك النّاس السّعداء وشأنهم كذلك، إلّا أنّا لا نحبّ أن يأتينا أحد، فيُشْبعنا سبّاً وشتماً، أو يستهزئ منّا، ويسخر. والحال أنّ هذا الرّجل، جعلنا ندرك، وهو يهرب منّا دون سبب معقول، بأنّ مجرد النّظر إلينا مثيرٌ للخوف، وكأنّا وحوشٌ أو فزّاعاتٌ، وهذا أمرٌ يصعبُ أنْ نغفره له. وبعد ذلك، عثَرَ على ما يكفلُ له إذلالنا وإهانتنا، حين توقّف ينتظرنا، فتبوّل عُنْوة أمام أنظارنا. والآن، ها هو لا يألُ جهدا، وقد اختبأ وسط الدّغل، في التّهَكم منّا بأكبر قدر من سوء النّية المبيّتة. لذا، انتظرنا في نفاد صبر تقريبا، أن تقودنا حاسّة الشّم المدرّبة، التي جُبل عليها الرّاعي، لاقتفاء أثره، وإخراجه من مكمنه، حتّى نبيّن له بوضوح، لا لبس عليه، عاقبةَ اللّعب الخطير الذي تلاعب به معنا.

وأخيراً، صار وحيدا. أصَخّ السّمع، وهو متخفّ خلف إحدى الأشجار، للأصوات البعيدة التي كان يردّدها مطاردوه. بعد ذلك ترنّح، ثمّ تهاوى على ساقيْه. لكنّه لم يمكث طويلا، على تلك الوضعية: تمدّد على بطنه فوق

الأرض، ومكث ينتظر - بينما كتفاه ترتعدان، ووجهه يغوص بين القشّ المبلّل والإسفنجيّ - أنْ يهدأ روعه. بعدها، تدحرج من تلقاء نفسه على الظّهر، وأخذ ينظر الى قمّة شجرة الزّان المذهّبة، محاولا تذكّر اسّمها باللّغة اللّاتينيّة. والحال أنّه رغم رغبته الحيويّة، لم يتوصل الى العثور على تلك الكلمة المختصرة، من بين ثنايا ذاكرته. واعتقد بأنّ اللّحظة التي ينسى فيها المرء كلّ شيء قد حلّت، فخَشي أن يمتدّ به الأمر حدّ نسيان ما عزم عليه، في اللّحظة التي صار فيها الآنَ، قاب قوسين أو أدنى من تحقيق ذلك، كما يشاء. يكفيه فقط، أن يرتقي غصنًا متينًا بما يكفي، يتحمّل حمولةَ ثلاثة وثمانين كيلوغراما. كما أنّه يعرف كذلك، بأنّه إذا لم يقم بهذا على الفور - قبل العثور عليه من طرف هؤلاء الثلاثة - فإنه سيموت مثل الكلاب. ومع ذلك، لم يقم بأيّة حركة. بقي هناك، ممدّدا بكامل طوله، وقد غاص في دوامة الأفكار، وكأنه ما زال يأمل في شيء ما، وكأنه يترقّب حادثة غير متوقعة. حينها، خطرت بذهنه تدريجيّا، تلك الكلمة اللّاتينية التي ظل يبحث عنها، سابقا؛ فتلفّظ بها في رقّة، وكأنّه يحقق رغبته الأخيرة، حتّى دون أنْ يبلّل شفتيه، اللّتين تيبّستا: FAGUS!

تناهتْ إلى أنوفنا، ونحن نمشي برفقة الرّاعي، باحثين بين الغيران الرّطبة، وأغصان الأشجار المتشاجنة، والأعشاب المتطاولة النّابتة بين الأرومات، روائحُ الصّمْغ والصّوفان والأوراق المتعفّنة والإسْفنج. لكنّا لم نتوصّل الى شمّ رائحة ذلك الذّئب الهارب.

اسْتند الى المرْفقيْن، لرفع جذعه الى الأعلى، فحاول أن يحدّد، انطلاقا من الظّلال المنتشرة، التي ارتسمت على أديم الأرض، مقدارَ الوقت الذي أمضاه هناك، وهو ممدّدٌ تحت الأغصان الذّهبية التي تُخْفي عنه صفحة السّماء.

لكنّه، رغم الاقتناع الفوريّ بأنّ ما من ظلّ تحرّك، ولو بمقدار مليمتر واحد، لم يتوفّق في إبعاد ذلك الانطباع، الذي جعله يعتقد بأنّه أمضى وقتا كبيرا، في هذا المكان الرّطب. ثمّ تناهتْ الى سمعه لحظتها، نداءاتُ الطّيور غير المنتظمة، مثلما التقط بوضوح تامّ نَفَس الغابة الهادئ والعميق. شعر بدفق قوّة جديد، يسري في كامل جسمه، واسْتأنف وعيه الذي غرق في اللّحظة السّالفة في ما يشبه السّبات، يصحو، ويصفو بكيفية سريعة وغير متوقّعة، بفعل هذا الأمر غير القابل للنّقاش، ربّما: فقد بدت له تلك اللّحظة الوحيدة، التي لم يحدث أثناءها شيء، طويلةً وهائلةً وغيرَ محدودة تقريباً. ابتسم. ثمّ أدرك بأنّ هذا الإنطباع إنّما ينجم عن خاصية الإيهام المرتبطة بفكرة الزّمن، التي تتلوّن بحسب الأحوال النّفسية، وتتغيّر وفق التّغيرات التي تطالها. كما أدرك بأنّ لحظة ألَم واحدةٍ مثلا، تتخذ دوماً مدًى أكبر من لحظة الفرح. ومع هذا، تساءل عن الكيفيّة التي قد يعمل بها هذا القانون الغريب، إنْ عدِل هو عن نيته، وقرّر أن يعيش حتّى نهاية الوقت، الذي سيخصّه به القدر: هل سيبدو له الوقت المتبقّي طويلا، ككلّ مدًى مسجور بالمعاناة والألم، أم سيراه على العكس يذوب، وكأنّه قطعة ثلج أمسكت بها راحةُ يدٍ، سرعان ما تضمحلّ في لحظة واحدة، وكأنّها آخر الأوهام؟ ومهما يكن، فقد أراد على الأقلّ إخضاع ذلك الوقت الحقيقيّ، الذي فضُل له، للتّقييم. فانبرى بهدوء وتمهّل، يعقد عمليات الحساب، محوّلا الأيام الى ساعات، والسّاعات الى دقائق. وفي النهاية، قام بعملية الضّرب، فخَلُص الى النّتيجة التي تفيد بأنّه، إذا عاش تسعين يوما إضافيّا، فسيفضل أمامه ما مجموعه: 2160 ساعة، أو 129600 دقيقة، دون احتساب اليوم الرّاهن، الذي بدا أنّه ضاع نهائيّا. فبدا له هذا، أمرا يخلو من أيّ سوء، شريطةَ أنْ يعيش بالطّبع، كلَّ دقيقة من تلك الدّقائق، بكيفية مكثفة للغاية، كما لو أنّها ستمنحه الفرصة الأخيرة، ليشعر بما هو جميلٌ ومُهمّ.

بعد ذلك، انْضَمّ إلينا أحدُ حُرّاس الغابة. وقَعَ هذا بكيفية مثيرة للفضول، حقّاً. دنا منّا من جهة الخلف، دون أنْ تصدر عنه أيّةُ نأْمَة، وصاح: من تبحثون عنه، صار تحت مسؤوليتي، الآن! وقبل أنْ نُدْرك معنى كلامه، انتفضْنا على وَقْع صوته، ونحن نلتفت الى الخلف: كان يبتسم، وقد وقف هناك، بكامل هيْبَته ووقاره، لأنّه أدرك ربّما، بأنّه فاجأنا بمجيئه وتصَرّفه الفظّ. بعدها، اسْتأنف قائلاً: هذا الشّخص، في ملكيتي! كيف يحقّ لك ادّعاء هذا؟ اشرح لنا! ردّ عليه إياكوف، وهو يتمتم. الأمر واضح: مسؤوليتي في الغابة، تشمل الغطاءَ النّباتي والوَحِش، وهذا يعني عالم النّبات والحيوان برمّته! لكنّك لستَ مسؤولا عن البشر! أضف الى ذلك أنّه ليس من حقّك، حمايةَ ذلك الشّخص الذي نبحث عنه، قلت له. ليْسَتْ لي في الواقع، نيّة حمايته، همس حارس الغابة بنبرة خافتة، يسِمُها طابع المسارّة. على العكس: أريد أن أكون أول من يقبض عليه! أعلنّا عن احتجاجنا، إياكوف وأنا، بلهجة قويّة. كنّا نعتبر بألّا حقّ لأحد في اختلاس ذلك الهارب منّا، خاصّة أنّا طاردناه صبيحة بكاملها. سألنا الحارسُ عمّا اقترفه في حقّنا، فلم نُجِبْه بشيء، لأنّا لم نرغب كثيرا، في أنْ نشرح له جميع الملابسات، التي جعلت ذلك الفارّ، ينْتَزع منّا سكينتنا الرّوحية العجيبة، ويحوّلنا الى حالة هيجان نفسيّ محموم. ذلك سرّ إذن، استطرد الحارس قائلا. ليس بسرّ، وإنّما نحن لا نرغب في مفاتحتك في أمورنا الخاصّة، قلت. صمت الحارس. عبّ من سيجارته بعض العبّات، وقد أغمض عينيه. بعد ذلك، بذل مجهودا واضحا، ليبتسم في وجوهنا جميعها، وحكى لنا حكايته مع ذلك الرّجل، الذي يختفي وراء إحدى أشجار الزّان. قال إنّه سرق منه بندقيته الرّسمية، في فصل الخريف الماضي. ونتيجة لهذا، اضْطُرّ الى اقتراض مبلغ ماليّ كبير، ليقتني بندقية أخرى، لأنّه خجل من التّصريح لإدارته، بأنّ لصّا بذيئا سرق منه السّلاح، بينما هو نائم. ثمّ أضاف بأنّه لو استطاع وضع اليد عليه، لأجبره - في حال ما لم ينتزع فيها قلبه، بكلتا يديه - على أن يعيد إليه البندقية على الأقلّ، أو يدفع له تعويضا

عنها. التمسنا من الحارس ألّا يبالغ في الحماس، ونحن نحاول أن نغطي على صوت الرّاعي، الذي طالب هو الآخر بالتّعويض عن كلبه القتيل، قائليْن: قبل انتزاعك لقلب ذلك الرّجل، علينا أنْ نصفي معه نحن بالذات الحساب، بكيفية أسرع! لذلك، اقترحنا عدم تضييع الوقت في النّقاشات العقيمة، والمرور فورا الى العمل. ولدهشتنا، وافق حارس الغابة على هذا المقترح، لكنّه اشترط بصوت خافت، وبنبرة باردة تقريبا، ما يلي: أن يأخذ بزمام القيادة!

نهض من مكانه، ومرّر راحة يده على غصن دانٍ من شجرة الزّان المذهّبة، التي لم يعد يرغب في شنق نفسه عليها. تردّد بشأن الوضع الذي ينبغي اتّخاذه: أعليه انتظار حلول اللّيل، وهو مختبئ بين الأغصان الثّخينة، أم العودة نحو محطة القطار، فوراً. شعر بأنّ الوقت انْساب انسياب الرّمل، من بين يده، في حين كان عليه أن يملأ منه كلّ لحظة من اللّحظات، التي تفضل له، بشيء يستحق أنْ يُعاش. ومع ذلك، لم يتحرك، وشقّ عليه أنْ يؤمن بمثل هذه الإستعارة المتكاملة. ظلّ يصيخ السّمع للصّوت الملتبس، الذي استفاق بداخله، وهو واقف في جمود. بعد ذلك، تأكّد على نحو مباغت، من أنّ ذلك الصّوت لا يأتي فعلا، إلاّ من الخارج. كان صوتا غريبا، أشبه ما يكون برجفة صفيحة معدنيّة، أو حشرجة حيوان، إنْ لم يكن همسَ مطارديه المخنوق والخطير. وعلى إثر هذه الفكرة، تملّكه الهلع، وأطلق ساقيْه للرّيح، وقد شقّ لنفسه طريقا، وسط الغابة.

حين قبلْنا بشرطه السّخيف، قادنا الحارس بخطو صامت، باتّجاه شجرة زان معزولة، فألفيْنا الأرضيّة تحتها - لغيظنا الشديد! - مدعوكة ومقلوبة،

وبعض الأوراق مبتلٌّ من أثر الرّطوبة، الى جانب إسْفنج منتزع، وربطة عنق حريريّة، عُقدتْ بحزام جلديّ متقلّص العَرْض. لم يظهر على دليلنا أنّه استاء، ولا حتّى شعر بالإحباط، وإنّما ابتسم بكيفية تنمّ عن التّعالي والتّفوق، ثمّ إذا به يرفع رأسه مثل أيْلٍ، الى الأعلى. أغمض عينيه، ورفع رأسه بشكل مستقيم الى الفوق، وأجهد نفسه بشكل كبير لتصيّد أدنى ذبذبة من ذبذبات الصّوت، أو أدقّ رائحة ممّا يمكنه اقتيادنا، لاقتفاء أثر ذلك الهارب، من بين حفيف الشّجر الخفيف والملغز، رغم غياب الرّيح. بعدها، ارتعش جسمه كلّه، ثمّ شرع في الوقت الذي كدنا نفقد فيه الأمل، يجري في اتجاه مركز الغابة. هرولنا خلفه، ونحن نعتقد بأنّه لم يكن إلاّ يخدعنا. لكن، ما هي إلاّ لحظات، حتّى لمحنا فجأة، بين جذوع الأشجار الأسيلة والصّلبة، هيئة آدميّة ذات قامة طويلة، تغلّفها دكنة غامقة، تترنّح في خطوها مثل حيوان مخْفل، خارت قوته.

حين أخذتْ قدماه في الغوْص حدّ الكاحليْن، بين الطّبقات الرّخوة لأوراق الشّجر الرّطبة، خال نفسه صار يعدو، كأعرج. بعدها، أدرك بأنّه فقد في تلك الأثناء، فَرْدَةَ حذائِه اليمنى، فعاد على أعقابه يبحث عنها. فإذا به يبصر حينها، بين الأشجار السّامقة، هيئةَ رجال أربعة يميلون بجذوعهم نحو الأمام. في البدء، لم يستوعب بأنّ عدد مطارديه قد ارتفع. لكنْ، ما إن اتّضح له ذلك في اللّحظة الموالية، حتّى ظنّ بأنّه لن يفلت من قبضة هؤلاء أبدا، وبأنّه لن يخرج حيّا من وسط هذه الغابة! ومع ذلك، استمرّ يركض، وهو يحسّ بأنّ مقدار خوفه قد ازْداد، في الوقت الذي اسْتفاقت بين جوانحه، الرّغبة في الحياة. ثمّ نزع عن قدمه اليسرى فردة الحذاء المتبقية، وشعر بأنّه غدا بغتة، أخفّ من ريشة، وأرشق من ظبي.

صعُب علينا اللّحاق به، لأنّه كان يعدو بشكل أسرع منّا، منعطفاً تارة الى اليمين، وتارة أخرى الى الشّمال، كي يخاتلنا، ويعمل على مخادعتنا.

تكوّن لديه الانطباع الآن، بأنّه لا يدور إلّا وسط حلقة مُفْرغة، بعدما فقد أيّة فكرة عن الزّمان والمكان. رانَ صمتٌ غريبٌ وعميقٌ من حوله، فبدتْ له الغابة برمّتها، باردةً وجامدةً وكأنّها اقْتُطِعت من معدن النّحاس. لم يعد ثمّة غناءُ العصافير، ولا حفيفُ الأغصان، كما لم يعد هو يسمع حتّى تنفّسه!

انتهى بالإختفاء وسط هذه الغابة، التي كانت تتصادى بين أركانها، ضمن دائرة ضوئيّة نابضة من الدّوائر، التي تميّز ظهيرات أُغُسْطس، جوقاتُ العصافير التي خفت غناؤها، وعددٌ غفيرٌ من الأصوات الملغزة الأخرى، وكأنّ الغابة أرادتْ أنْ تعبّر له عن فرحها، وهي تقدّم له ملاذا آمنا، وربّما خلاصا.

اعتقد، وهو يدور وسَطَ حَلَقةٍ سحْريّةٍ من العتمة والصّمت، بأنّه عاد مجدّدا الى قلب تلك الغابة، التي لاذ بها خلال تلك اللّيلة المسكونة بالضّغينة والعداء، لمّا هرب من كوخ الرُّعاة في طفولته البعيد، ببريكورْنيتْسا؛ لم يعد يذكر بالمرّة، هل اقترف حقّا جريرة ما، أم أنّ الخوف ألَمَّ به فقط، نتيجة مشاعر الخطأ التي سكنته. لكنّه يذكر جيّدا، بأنّه شعر بالخوف من البشر أكثر من الذّئاب، وبأنّه أصرّ بسبب ذلك، على عدم الإستجابة لنداء والديْه المديد، اللّذين باتا يبحثان عنه في الجبل، على ضوء مصباحهما اليدويّ، وهما يَحُضّانه على العودة الى البيت. مكث، وهو منهكٌ، وجائعٌ، ومتجمّدُ الأوصال،

ومروّعُ الدّواخل بسبب الصُّياح، الى غاية انْبلاج ضوء الصّباح الأول، مثبِّتا عينيْه في قمّة بريكورْنيتْسا المكلّلة بالبياض؛ بينما تلازمه رغبةٌ عارمةٌ في الصّعود إليها، حتّى يبحث له هناك، عن ملاذ آمن يستجير به، فيتحرّر من مخاوفه تحت الغطاء السّماوي المتلألئ. وها هو الآن، يشعر تحت تأثير تلك الصّور والأفكار، بأنّ تلك القمّة الهلاميّة البيضاء تجلّت لناظِريْه فجأة، وكأنّها انبثقتْ من بين غُلالة الغَمام؛ فساوره الإعتقاد على إثر ذلك، بأنّه عاد مجدّدا الى أحضان غابته الطفوليّة الباردة.

مكثنا نبحث عنه طويلا، حتّى إنّ الأمل في العثور عليه قد ضَؤُل؛ فأُصِبْنا على إثر ذلك بجروح عدّة، تسبّب لنا فيها احتكاكُ أجسامنا بالأدغال الشّائكة، ونبات الأرقِطْيون والقرّاص. وزيادة على ذلك، تَعَثّرنا بغيران النّمل، وتجاويف الحجارة التي تخفي سراخس متطاولة. وظلّت الأغصان المنحدرة تَجْلُد محاجرَ عيوننا، والنّحل يلدغنا. لقد صرنا باختصار، مَكْشوطي الجلد، ومبللين، وملطّخين بالطّين، وغاضبين من ذلك النّذل بالطّبع، الذي توعّدناه، بملْء أصواتنا المتهدّجة، بأنّه سيندم لا محالة، على اليوم الذي صادفنا فيه، حين نُلْقي عليه القبض!

فجأةً، نفذ الى فضاء السّهل الرّحيب، حيث تتناثر على صفحته عدّةُ بروزات مرتفعة، فتعَثّر بفعل إضاءةِ شمس الظّهيرة الباهرة، التي هجمت على عينيه. ومع ذلك، انتصب واقفا، واستعاد إيقاعَ ركضه، واضعا يده اليسرى فوق جبهته، للإحتماء من الضّوء شديد العنف، ومن صفاء السّماء التي تحرّرت من غيْمها.

حين خرجنا من الغابة، لمحناه من جديد: كان ينحدر عبر السّهل النّضير المخْضَرّ. ورغم بعده الشّديد عنّا، استطعنا رؤيته، وهو يترنّح، ويتمايل وكأنّه سكران، أو مثل شخصٍ استنفد قوته استنفادا تامّا؛ إلاّ أنّ أول ما تبادر الى أذهاننا، هو أنّه ليس سوى مجنون، لكونه خرج من مَكْمَنه، على نحو يجعله مكشوفا لأعيننا، بحيث لن يواتيه أيُّ حظّ للهرَب من قبضتنا، في ذلك الفضاء الفسيح.

وبينما الفرحُ العارمُ والمُشبع بمشاعر الارتياح يغمره الآن، لأنّه انفلت من بين فَكّي تلك الغابة الباردة والمميتة، تساءل إنْ كان سيقوى على التّواري عن تلك الشّمس، والتّغلب على رحابة ذلك الفضاء الممتدّ فسيحا، أمامه؟

كنّا جميعنا غاضبين بشدّة، الى حدّ أنّنا ردّدنا بأنّه صار بالمقدور الآن، وسط ذلك السّهل العاري، الإمساك بأيّ حيوان مهما بلغتْ سرعته، وأحرى بإنسان أخرق ومتعب مثله!

لم يلتفت الى الخلف مرّة أخرى، ليُحصي عددَ مُطارديه، أو ليتأكّد ممّا إذا كانوا قريبين منه على نحو خطير، لأنّه أدرك بأنّ عينيْه اللّتين غمرهما الضّوء الباهر، ستخدعانه لا محالة. لذلك، ظلّ يجري في خطّ مستقيم، وهو يتقدّم الى الأمام بين أعشاب ثخينة ورطبة، سكنته وسطها رغبةٌ مجنونة، وَدّ لو يستطيع الإرتماء بين أحضانها، كما لو كانت موجةً مختلجةً، لعلّه يغرق هناك وسط العشب، ويمكث جامدا كالحَجَر. وقد بلغت به هذه الرّغبة مبلغا عظيما، حدّ الظّن بأنّه سيذعن لها، وهو واثق من كونه لم يعد يقوى على التّوقف، ولا ترك

هؤلاء المطاردين يلحقون به، للقبض عليه. «إن لم تعد تقوى على التّحَمل، فحاول أن تعثر بداخلك على منبع قوة جديد، وأنتَ تفكّر في شيْء مُهمّ! ردّد في نفسه. فكّرْ مثلا في السّبب الذي جعلك تقرّر فجأة، أنْ تبقى حيّا!».

في تلك الأثناء فحسب، انتبهنا الى أولئك الرّاكضين بالقرب منّا، دون أن نقوى على تفسير سبب مرافقتهم لنا. ربّما، لم يكونوا سوى نُزلاء في شاليهات جبليّة، أو مجموعة متنزّهين يتفرّغون لأنفسهم، فلم يقووا على مقاومة إغراء المشاركة، في هذا العَدْو المثير والواعد بالمغامرة. لا شيء بالتّأكيد منعنا من استفسارهم عن هويتهم، وعن سبب التحاقهم بنا. إلّا أنّا لم نفعل: ألسنا نطارد في النّهاية، نفسَ الرّجل؟ فما أهمية البحث في الأسباب التي تدفعنا إذن، الى التّحالف ضدّه؟

كان يبحث عمّا يشدّه الى شيء، يمنحه الإرادة وقوّة التّحمُل والصّبر، وهو ينظر الى الوراء متفحّصا في ذكريات ماضيه. إلّا أنّ جهوده جميعها باءت بالفشل: فهو بلا وَلَد قادر على مواصلة سلالته والحفاظ عليها، وبلا زوجة تبكيه، وبلا حتّى صيغة كيميائيّة مُبتكرة، بمقدورها أنْ تُخلّد اسمه، بعد أنْ أنفق خمسة عشر عاما، في إصراره على البحث المتواصل! وفجأة، بدا له بأنّه لن يُخَلّف وراءه غير الفراغ والسّديم المقفر، اللّذين لم يقْوَ على أنْ يستمدّ منهما أيّة صورة، ولا أيّ صوت أو رائحة. لا شيء ممّا يُمكنه أن يؤكّد له بالملموس، بأنّه عاش فعلاً. وعلى إثر هذا، شرع في البكاء، بينما يداه ممدودتان في اتّجاه الأفق الأزرق البعيد. كان يشرق بدمعه الذي امتزج بالعرق، وثقُل بغبار الطّلع الذي انفلت من الأزهار، وأخذ يرفّ من حوله، وكأنّه ذباب يلمع. لكنّه لم يَدْر، خلال هذه اللّحظة الكئيبة من تحوّله، إنْ كان يبكي لأنّ كلّ ما يشكّل جوهر الحياة قد انفلت منه، وكأنّ إعصارا جرفه الى الأبد، أمْ أنّه بالعكس لم

يكن إلّا يذعن، بدمعه الذي ما عاد يتحكّم فيه، لفكرة أن حصيلة: 21600 ساعة التي فَضُلت أمامه، لن تسمح له بتدارك ما تركه يضيع من بين فُرُجات أصابعه، خلال رحلة العمر التي قضى منها سبعا وثلاثين سنة.

بعد ذلك بقليل، علمنا بالأسباب التي حذتْ بهؤلاء المزعجين الى الإنضمام إلينا، وكانت غير متوقعة. صاح أحدهم على حين غرّة، قائلا: لم أعد أرغب في الفرار! أنا لم أرتكب أي ذنب! تحلّق الآخرون حوله، وقالوا إنهم لم يرتكبوا أيّ ذنب كذلك، ومع هذا يفرّون، لأنّ من دواعي الحيطة عدم بقاء المرء في المؤخّرة، وإلّا سيعرّضه ذلك للأخطار الشّنيعة. حَدَجْنا الجميعَ بنظراتٍ جانبيّةٍ، ونحن نضحك من غفلتهم. نحن لا نفرّ من أحد، قال إياكوف. وإنّما نطارد أحدهم! حذّقوا بثبات في الإتّجاه الذي أشار نحوه بذراعه، فبدا عليهم الإطمئنان. ثمّ شرعوا في طرح الأسئلة بعد ذلك، مستفسرين عمّا فعله ذلك الشّخص، الذي يركض هاربا هناك، في البعيد. وعمّا ثبت عليه عزمنا، واستقرّت عليه نيتنا، في حال القبض عليه. بالطّبع، لم نُجب بشيء. لكنّهم لما ألحّوا في السّؤال، اضطررتُ الى الردّ عليهم بعنف، قائلا: عجبا! وفيم سينفعكم هذا؟! وفي الحال، قال ذلك الذي أشار من قبل، الى أنّه لم يعد يرغب في الفرار: عفوا! إنّما المشاركة في المطاردة تقتضي معرفة الدّواعي، التي تملي تلك المطاردة، أولا! فردّ عليه حارس الغابة في صيغة استخفاف هازئة، قائلا: ومن أخبركم بأنّا سنترككم تطاردونه؟! ابتعدوا عنّا بعدها، وأخذوا في التّشاور بصوت مهموس. ثمّ صاح أحدهم في الأخير، يقول في جرأة وتصميم: على كلّ حال، نحن نريد أنْ نشارك نسبيا في مطاردته، ولا حقّ لأحد في أن يمنع عنّا هذا. سألتهم: لكن، بماذا ستؤاخذونه؟ فقال أقصرُ أفراد المجموعة قامةً، بلهجة فيها تبجّح: هذا يخصّنا نحن أيضاً، ولسنا مجبرين على أن نقدّم لكم، تقريرا مفصّلا عمّا سنفعله!

في تلك الأثناء، فكّر بأنّ كلّ شيء لم يضِعْ منه ربّما، الى الأبد: فلو عاش بشكل تامّ، كلَّ لحظة من تلك اللّحظات المتبقّية له، بوصفها اللّحظة الوحيدة والنّهائية في حياته، لانتهى به الأمر الى تكوين الإنطباع بأنّه نال ربّما، حظّه الكافي من الحياة!

ثمّ واصلنا المطاردة، بشكل جماعيّ. ونجح في المحافظة على تقدّمه علينا، بمعجزة غير مفهومة، راكضا في خطّ مستقيم باتّجاه الأمام، دون الإلتفات الى الخلف لرؤيتنا؛ وعلى إثر ذلك، شعرنا بأنّنا مثار سخرية. وكانت الشّمس تنزل بسياطها على جباهنا، والعرق ينزّ منها، وينزل الى العيون، فأخذنا نترنّح من شدّة التّعب والعطش. ولهذا، أخذنا في سبّه والقدح فيه بكيفية مباغتة، واصفينه بأقذع الأسماء، وأحطّ الأوصاف وأحقرها، ونحن نتوعّده بالإنتقام، دون أن تشدّنا إليه رأفة، ولا شفقة.

فتَساءَل عمّا ينبغي فعله، حتّى ينتهيَ الى تلك القناعةِ الآنفةِ: هل سيتوصّل الى إيجادِ تلك التّركيبةِ الكيميائيّةِ المأمولة، التي أضاع فتراتٍ من شبابه، في سبيل أنْ يصلَ إليها؟ هل سيتمكّن من رؤيةِ جميع المدن والجبال والبحار البعيدة، التي ظلّ يحلم برؤيتها على الدّوام، مؤجلا السّفر إليها الى أوقات أخرى، تكون مواتية أكثر، أو الى أن تتوفّر له فرص أفضل؟ هل سيفلح في غضون ما تبقى له من ليال قليلة، أخذ مداها يتقلّص أكثر فأكثر، في معانقة كافة النّساء اللّواتي لم يكن له حتّى الوقت الكافي، لتتحرّك فيه الرّغبة فيهنّ، والميل نحوهنّ، بعد أنْ أغلق على نفسه في المختبر، وانْكبّ على تجاربه؟ هل ستثير فيه كلّ الحفلات بعض المشاعر والعواطف، وهي الحفلات التي ظلّت الى وقت قريب، لا تُحرّك فيه أيّ ساكن؟ هل سيعرف كيف ينبغي له الكشف،

في جميع ما لم يكن يلاحظه أبدا، أو ينتبه إليه، على بعض الجمال الذي بمقدوره إمتاعه؟ هل سيعرف في هذا الحَيّز الزّمني الضّئيل جدّا، الذي فضل له، كيف يشعر بما يكفي من المعاناة والسّعادة، حتى يقتنع في قرار نفسه بأنّه عاش بحقّ حياته، بوصفه إنسانا؟!

بدأنا نفقد كلّ أمل في الإمساك به، لأنّه كان يجري حقيقةً، على نحو أسرع منّا، ولا يكفّ عن تحقيق السّبق تلو الآخر، وكأنّه يترقّب ملاقاة شيءٍ ما هناك، على الطّرَف الآخر من السّهل المترامي، شيءٍ ظلّ يتشوّق إليه بقوّة. فهل كنّا نملك في ظلّ تلك الشّروط، من خيار آخر غير توجيه كرهنا له؟ بالطّبع، حين شرعنا في كرهه، لم نشُكّ منذ الوهلة الأولى، في أنّ هذا الشّعور القويّ والعجيب، الذي يقف بيننا وبينه، قضى بسرعة على كافّة الأسباب التي كانت تدفع بنا، حتّى ذلك الحين، الى ملاحقته: صرنا قريبين من بعضنا البعض فجأةً، ومتماثلين تقريباً فيما بيننا، ومتشابهين حتّى في المظهر الخارجيّ، إذ غرقْنا في العَرَق، بينما صارت ملامح وجوهنا متقلّصة، وجذوعنا مائلة أكثر الى الأمام، ونحن نجري بنفس الإيقاع والتنفّس وحتى بنفْس النّفَس، وكأنّا رَهْطُ كلاب منهوكة، لا تستمدّ طاقتها ولا قوتها إلا من الإندفاع المحموم، ومن الحقد المسعور.

وبينما هو منشغل بالإجابة عن كافّة تلك الأسئلة، بتركيز النّظر في موته الخاصّ، بوصفه مرآة تعتّمتْ صفحتُها، وانعكستْ عليها فجأةً جميعُ تفاصيل حياته بوضوح رهيب، بخطوطها الشّنيعة وألوانها الصّاخبة؛ شرع ذلك الموت يرقص أمام ناظريْه، فأدرك بغتةً، بأنّ الوجود الإنسانيّ لا يكتسب معناه، إلّا بفضل الحبّ والجمال، أيْ بفضل ما افتقدتْه صورةُ حياتِه المنعكسةِ

على تلك المرآة تحديدا، بقبحها وقتامتها. وعلى خلفية ارتباك أعماقه، بسبب هذا السرّ البسيط والعجيب، الذي انتهى الى اكتشافه، تكوّن لديه الإنْطباع بأنّ المنظر الطبيعيّ الذي أمامه، تغيّر على حين غرّة: غدت القمم الجبليّة المسنونة والدّاكنة شفّافةً أكثر، وذابتْ مثل ظلال متفشية بين ثنايا قبّة السّماء المخملية؛ والعشب الغزير الذي أعاقه في اللّحظات السّابقة، غدا رطباً وبلون أزرق؛ والسّهلُ المتموّج برمّته أصبح شبيهاً بالبحر! ومع ذلك، فإنّ هذا التّحول من حال الى أخرى، لم يفاجئه. أدرك بأنّ الأشياء صارت منذ ذلك الحين، تنعكس بداخله بكيفية مختلفة، لأنّه كان في حالة اكتشاف للجمال الذي ينطوي عليه كلّ شيء، وفي حالة استشعار للمحبّة إزاء كلّ العالم. فبدأ يعتقد بفعل هذا، بأنّه سيخادع القدر. ربّما لهذا السّبب، صار يعدو بسرعة أكبر، وهو واعٍ بأنّه لم يعدْ في خضم ذلك السّباق، مسنودا بالخوف ولا باليأس، وإنّما بفكرة استطاعته الإنفلاتَ انفلاتاً حقيقيّاً بنفسه فقط، وهي الفكرة التي ظلّت تنبض بداخله. وعلى إثر ذلك، ترنّح، وأخذ في الميلان أكثر. ثمّ شعر برغبة عنيفة وغير مفهومة، هي الرّغبة في رؤية البحر، تستبدّ بمساحة صدره، وتنتشر بين جميع أطراف جسمه، وكأنّها قَبَسٌ من النّار!

كان ذلك الحقد الذي تملّكنا حياله، في الواقع، أشبهَ برغبة مخيفة وعجيبة.

في تلك الأثناء، رغب بقوة في سماعِ الهَدير الغامض للمَوْج، الذي يتكسّر على الرّمل؛ وفي الصّمت الغامر بالهدوء المطْبق على السّكون؛ وفي أيّام الحرّ الملتهبة التي تتفتّت أثناءها، الحزّازاتُ على الأَحجار السوداء، وينضج خلالها نُسْغ التّين المنتفِخ؛ وفي أزيز الزّيز الصّاخب الذي ينبعث، من بين الأرجاء الخفيّة؛ وفي الرّائحة الحرّيف المثيرة، التي تصدر عن الملح، القارّ، الأسماك المقليّة، الطّحالب الجافّة، اليُود، النّبيذ الأحمر وزيت الزّيتون المحترق؛ ورغب

في اللّيالي الهادئة تحت السّماء المطْبقة، التي تنكسر مثل جَرَس فضيّ، بين أعماق البحر. كان يتشوّق الى شاطئ الميدي الخاليّ من البشر، الذي يقع بقرب بُودْفا، حيث سيمكث وحيدا، متمدّدا على الرّمل السّاخن، وهو جامد وذاهل عن كلّ شيء، وكأنّ العالم برمّته ما وُجد إلاّ ليكون له، وحده. كما رغب أيضا، وبيأس تقريبا، في جسد أنثى مُضْطَرم بالحرارة والدّعارة، تجعله الشّمس رخواً وليِّنا بما فيه الكفاية، حتّى يَنْغَمس فيه على نحو كامل، فينسى الموت والزّمن!

تملّكتنا رغبةٌ مسكونةٌ بالغضب العارم، في القبض عليه بأقصى سرعة ممكنة، وجعله يدفع الثّمن غاليا على ما جَشّمَنا من متاعب وأحقاد. وكنّا جميعا نتوعّده في حِقْدٍ وغضَب، ونحن نلهث، ونصيحُ صياحا متقطِّعا، لا يمكنه للأسف أنْ يصل الى سمْعِه، نؤكّد فيه على أنّنا سَنَدُوس عليه بالأقدام، ونَدْعَسُه مثلما تُدعَس الحيّات، ثمّ نقطّعه إرْبا إرْبا، ونُحَوّل جسْمَه الى عجين رخْو، بعد أن ننتزع أظافره وأسنانه، ونملأ فمه بالتُّراب، ونبْصَق على عينيه. وسننتزع قلبه منه في النّهاية، إن كان في جوفه قلب، وهو ما يزال على قيد الحياة، وقادر على التأكّد من ذلك، بنفسه!

في خضم هذه اللحظة الرّائعة، وبينما الرّغبة في البحر تنهشه، وإحساسٌ بمحبّة شاملة للعالم كلّه يملأه، لأنّه صار ينتمي إليه، ويدرك بأنّه سينتمي إليه الى آخر نفَس من حياته؛ لم يساوره أدنى شك في أنّ قدميه وكاحليْه الممزّقة كلّها بالأشواك، تركت وراءه آثار دماء قانية فوق العشب المدعوس. كما أنه لم يعد يشعر بأيّ ألم في العينين، ولا بالحاجة الى وضع يده فوقهما لحجب الضوء الباهر عنهما؛ ولم يعد يحس في قرار نفسه، وهو وسط ذلك الفضاء المتموّج، بأنّه وحيد ولا أعزل أو صغير جداً، مثلما شعر بذلك من قبل.

والحال أنّ بعض النّاس، ممّن بدا لنا وكأنّه خرج من تحت الأرض، لم يكفّ عن التّقاطر علينا، والإنضمام الى صفوفنا، بينما كنّا نجري وراء ذلك الهارب، كالعميان تقريبا، بفعل أشعّة الشّمس الباهرة، واحتداد غليان الحقد في النّفوس، ونحن نصبّ جامّ غضبنا عليه؛ وكان بعض هؤلاء القوم من المزارعين، الذين تسلّحوا بالرّفوش والمناجل والعِصي، وبعضهم الآخر من ساكنة القرى الجبليّة، الذين يَعْتَمرون قُبّعات مُزيَّنة بالرّيش، ويحملون المعاول والحبال الملفوفة؛ وكان البعض الثّالث من المتنزّهين ذوي الأجسام الهزيلة والوجوه الشّاحبة، الذين يرتدون لباسا صيفيّا، ناصعَ البياض وشديدَ النّظافة. والأغرب من كلّ هذا أنّهم انضمّوا إلينا، إمّا بسبب مقنع بعثهم على ذلك، أو أنّهم ما إنْ لمحونا فقط على تلك الحال، من العَدْو المسْعور، حتّى وجدوها بغتةً، فرصةً غير متوقّعَة للقيام بشيء مثير، وأقلّ ابتذالاً من اليوميّ المشترك بينهم؛ فتملّكهم بذلك جميعاً سُعارُنا الشّديد، وجعلهم يندفعون بسرعةٍ نحو رَهْطنا النَّباح، الذي كان يقترب شيئاً فشيْئاً، مثل الرّياح العاتية أو النيرانِ الـمتأجّجة، من ذلك الهارب الذي خارت قواه، فبدا سلفاً، بأنّه مهزوم!

ظهر له الآن، بأنّ كلّ شيْءٍ صار في نفس الوقت، أجملَ وأكثرَ واقعيّةً، فلم يَخْطُر بباله في أيّة بُرْهة من تلك اللّحظات، بأنّ ثمّةَ مَنْ يتربّصُ به، ويُريد به شَرّا، أو يستطيع حتّى التّفكير في ذلك.

لمْ نلاحظْ في حينه، وقد أعْمى الحقْدُ بصائرنا، واستولى على مغالق أنفسنا، بأنّ ثمّة نساءً متشحاتٍ بالسّواد، يجرين بالقُرب منّا، وقد برزتْ من فرْطِ الهُزال عِظامُهنّ من تحْت الجِلد، حتّى بَدوْنَ أشْبه بغِرْبان الغابة. كُنّ يتوقّفن

بكثرة، ويُصْدرن شتائم يُقطّعها النّحيب، بأصْواتٍ فاترةٍ خَنّاء، وهنّ يُحَمّسْننا على المواصلة، ويُناشِدْننا فيما يشبه التّوسل تقريباً، بمتابعة المطاردة؛ وهو ما زاد من حِدّة سُعارنا. كُنّ يَحُضْنَنا، رغم النّزْر القليل من القوة، الذي فَضُل لدينا، على الرّفع من سرعة الرّكض، للهجوم على ذلك الرّجل، الذي صرنا ندنو منه أكثر فأكثر، حتّى إنّ المعجزة نفسها، لم تكن بالقادرة على أن تنقذه منّا.

وأراد التّأكُد من أنّ أيّ خطر، لم يكن يتهدّده بشكلٍ فعليّ، فتوقّف على نحو فجائيّ.

ودون استيعاب ما يقع، رأيناه يتوقّف بغتة: انْثَنت قامته بكيفية سخيفة ومضحكة، وشرع في التّأرجح الى الأمام تارة، والى الخلْف أخرى، ثمّ هبط جذعُه الى الأسفل ثالثةً، حتّى إنّ من رآه وهو على تلك الحال، لا يمكنُه إلّا أنْ يظنّ بأنّه لم ينحنِ بغير كَلَل، إلّا لكي يُقدّم التّحية لشخص ما، أو أنّ الأرض كانت في لحظة دنوّ موته، تجتذبه إليها بطريقة لا تُقاوم، وتنْتَزع منه بذلك، أيّة قدرة على بقائه مُنتصب القامة. ثمّ ما هي إلّا برهة، حتّى برزت للعيان مرّة أخرى، قامتُه الشّامخة.

بعد ذلك، التَفَتَ ببُطْء الى الخلْف، وقد كان متيقّناً تقريباً، من أنّه لن يرى أحداً.

ثمّ بقي ينتظر، بقامته الطّويلة والهزيلة، وبثيابه السّوداء القاتمة، مثل غرابٍ جائعٍ!

بدا له في البدْءِ، بأنّ لا شيء كان يتحرّك فعلا، وسط ذلك المنظر الطّبيعي المُنبسط، الذي يتلاشى بين زُرْقَة هدوءِ تلك الظّهيرة المُلتهبة؛ فظنّ بأنّه غدا لوحده، أخيراً. لكنّ الفضاءَ الرّحبَ الذي يفصله عن الغابة، سرعان ما انتعش فجأةً، بهيآتٍ كانت تتحرّك. فتساءل على الفور: أبالمقدور أنْ يصدّق عينيه، اللّتين التقطتا ذلك المشهد المذهل، الذي انتصب أمامهما، بغتة؟

اعتبرنا أنّ من غير المعقول، أن يظلَّ ساذجا بما يكفي، أو غير مكترث بالعواقب الوخيمة، حتّى ينتظر منّا معاملة مبنيةً على الرّأفة والشّفقة، بعد أن استفزّنا طيلة النّهار، وأشبعنا إهاناتٍ، وسامَنا العذاب الشّديد. فلماذا ينتظرنا، إذن؟ ما الذي أمِلَ فيه منّا؟!

ما رآه هو ذلك الحَشْد الغَفير من الهَيْئات البشريّة، التي ظلّت تدنو شيئا فشيئا منه، وتشقّ طريقها بين العُشُب المتطاول. كان جميع هؤلاء يركضون، ما وسعهم الرّكض، ويتهاوون على الأرض، ثمّ يزحفون على أيديهم وأرجلهم، وينهضون ثانيّة، ليستأنفوا على الفور المطاردة؛ وكأنّ الإتّصال بالأرض، التي يشتمّون فيها رائحتَه ربّما، كمُطارَد، أو يلعقون فيها بألسنتهم أثَرَ قدميه على الأديم، يُجَدّد فيهم مَنْسوب القوّة، أو يُضاعف من رصيد الكراهية والحقد، بدخيلتهم. ولم يفلح أبدا، أثناء تلك اللحظة الرّهيبة والأبديّة، من أنْ ينتزع من ذهنه ذلك الإنطباع، الذي جعله يعتقد بأنّه أمام رهط حقيقيّ من الكلاب المسعورة، التي تتقدّم مُسْرعة ومسعورة للإنْقضاض عليه، وبأنّ ما من شيء ثمّة، سيمنع هؤلاء من تقطيع أوصاله إرْبا إرْبا، وبعْثَرةِ جثتِه على طول ذلك السّهل الأزرق، وكأنّها مجرد مِزَق تافهة؛ بينما ينهض من أعالي السّماء همسٌ، يمكنه أن يكون صفيرَ ريحٍ جسور، أو - لم لا؟ - زمجرةً قاسية وخارقة، من الزّمن الذي يمضي.

مهما يكن، فإنّا اقتربنا منه بحنق شديدٍ متساوٍ بيننا، لأنّ لا شيءَ كان بمستطاعه الوقوف في وجهنا حاجزاً منيعاً، أو جعلنا نتردّد ولو للحظة واحدة!

إلاّ أنّه لم يفكّر حتى في الفرار، بعد أنْ شعر بأنّ لا حظّ له في الإنْفلات من مغبّة الغيظ الشّديد، الذي استبدّ بذلك الحشد الآدميّ الهائل!

ومع هذا، فإنّا توقّفنا، على غير المتوقّع، حين التفتَ نحونا، لأسباب غير مفهومة. ثمّ ظللنا ننظر إليه، يدنو منّا ببُطْء، ويمشي مشية رشيقة تقريبا، والدّهشة تستبدّ بنا: ظلّتْ عيناه تركّزان على الأفق البعيد، الذي يمتدّ فوق الرّؤوس، وهو يتسم بطريقة من كان مجنوناً، أو أعمى. وكان العرَق يتفصّد من جبينه، وينْحَدر في شكل خيوط متلولبة، تملأ صفحة وجهه غير الحليق، حتّى إنّ من رآه وهو على تلك الحال، قد يظنّ بأنّه يبكي.

ابْتَسم، وهو يتذكّر بأنّه كان في طفولته، فور وفاة والديه معا، يتصوّر بأنّ ثمّة في كلّ نظرةٍ، وفي كلّ يدٍ تمتدّ نحوه، بل حتّى في كلّ لمسةٍ، تهديداً يتوعّده بخطر غريب. لذا، بقي كلّما غرق في مستنقع الإحباط واليأس الآسن، الذي تتعذّر معرفةُ البواعث التي تدفعه إليه، أو كلّما شعر بأنّه ذلك اليتيم الشّقي ذا الدّواخل المضطرمة وغيرَ المرغوب فيه، الذي آواه أبوان فقيران وفظّان؛ إلاّ وتَطَلّع نحو قمّة بريكورنيتسا الهُلاميّة البيضاء، التي ظلّت منذ ليلة هروبه البعيدة، تتجلّى له خلال تلك اللّحظات بالذّات، بوصفها خلاصه الوحيد. لذلك، أجهدَ في تلك الأثناء بالذّات - وهذا شأنٌ غريب! - نفسه في يأسٍ، حتّي يتبيّن بعْدَ عدّةِ سنوات، ملامحَ تلك القِمم، التي يُجَلّلها الثّلج في صفحة

السّماء المكشوفة، من أجل أنْ يترفّع عن ذاته ومخاوفه - ولو ذهنيّاً، على الأقلّ - فيعلو عن كل هؤلاء.

لم ندرك، إلّا حين اقترب منّا كثيرا، بأنّ التّكْشيرة التي رسمها على صفحة وجهه المنقبض، الذي تعلوه عينان كبيرتان شاحبتان (وهي تكشيرة خِلْناها في البدء، ابتسامة عريضة)، لم تكن في الواقع سوى تقطيبة ناجمة عن الشعور بألم لا يُحتمل.

لكنّه، بعدما ضُرب على عينيْه حجابٌ الآن، لم يُوفّق في استدعاء تلك الرّؤْيا المُنقِذة، كما حصلتْ معه سابقاً، فتساءل على إثر ذلك، في دهشة وحزن: كيف استطاع السّماح لهؤلاء بملاحقته اليوم، هو الذي ظلّ منذ الطّفولة، يفرّ من البشر أكثر ممّا يفرّ من الذّئاب، بدافع يُشْبه الغريزة العجيبة؛ في حين أنّ ما يرغب فيه أكثر من أيّ وقت مضى، هو الإنفلات من الجميع، لينفرد بذاته؟!

اندفعنا جميعا نتراجع الى الخلف، تحت تأثير الهلع، وكأنّا وجدنا أنفسنا فجأة، وجها لوجه أمام جنّي، أو مصّاص دماء!

حينها، بدا له بأنّ شيئا ما تغيّر في المشهد، الذي أحرق في اللّحظة السّابقة عينيه، إلا أنّه لم يتمكّن من الإحاطة الفوريّة، بما تغيّر. لذلك، لم يستوعب إلّا بعد مرور هنيهة، بأنّ الحشد الغفير الذي كان متعبا ومتفصّدا بالعرق، أخذ في التّراجع أمامه الى الوراء بكيفية بطيئة، وكأنّ هؤلاء أصيبوا بالرّعب، من جرّاء رؤيته يقترب منهم أكثر. ابتسم مجدّداً، وقد أدهشه هذا الإنْقلاب

غير المتوقّع وغير المحتمل تقريبا، الذي آلتْ إليه الأمور، فداخله الإعتقاد بأنّ تغييرا ما أخذ في الحدوث بدخيلته هو أيضا، لأنّه أحسّ سلفاً، في خضمّ الإرْتعاشة السّائغة التي سرت بين كافّة أطرافه، بإحساسٍ قويٍّ وجديدٍ كلّ الجِدّة، يخنق بنبضِ قلبه المُصِمّ، كلَّ ما هيْمن على مشاعرِه، الى حدود تلك اللّحظة.

كنّا في الواقع نتراجع الى الخلف، أمام حقده البغيض وغير الإنسانيّ تقريبا، الذي جعلنا عاجزين تماماً عن مواجهته، بأيّ شكل من الأشكال.

وتيقّن من أنّ الذي استعرّ بداخله، ليس سوى حنقه على هؤلاء، الذين يتراجعون الى الوراء، كلّما اقترب منهم؛ وعلى ذلك العشب الذي ارتوى من دمائه الشّبيهة بقطرات النّدى؛ وكراهيته لذلك البحر الذي لن يبلغ شواطئه، أبدا؛ وبغضه الموجّه الى تلك النّسوة اللّواتي أراد عشقهُنّ؛ ولذلك الضّوء الذي سينطفئ في عينيه؛ والى كلّ ما يوجد على هذه الأرض؛ لأنّ كلّ ذلك، سيستمرّ يوجد من دونه!

كدنا نعتقد بأنّه نفث فينا سحرا أسود، سبى به إرادتنا!

ظنّ، والكراهية للعالم برمّته تستبدّ به، بأنّه سيهلك، أو سيفقد عقله، ويجنّ في تلك الأثناء!

بقِيَتِ النّسْوة المتّشحات بالسّواد، اللّواتي استمررْن في التّأوُه والنّواح بصوتٍ خافت، الوحيداتِ الصّامدات بلا أدنى شكّ، في وجه ما يملكه ذلك الرّجل ذو الوجه المشوّه، من قوّة سحريّة عجيبة.

حينها فقط، انبثقتْ من بين طبقات الضّباب السّميكة، على هيئةِ صورٍ واضحةٍ وثابتةٍ، فرضتْ نفسها عليه، تلك القصّةُ ذات الأطراف المجتزأة، التي تؤول الى أزمنة خوال: وهي محكي سمعه في فترة طفولته، وتضمّن جوانبَ مأساةٍ وملهاةٍ، تتّصل بحادث غريب، وقع قبل ولادته بسنوات، ذات يوم أغسطسيّ ملتهب، يشبه هذا اليوم بالذّات، وربّما تكون الحكاية قد وقعت حتّى، في نفس تاريخ هذا اليوم: وقتها، دشّن جدّه الأعلى يوكْسيم، البالغ من العمر ثلاثة وتسعين عاما، شوطا ثانيّا من مسار حياته، في اللّحظة التي التأم فيها بالتّحديد، جمعٌ غفير من النّاس حول السّرير، الذي ظلّ عدّة أيام يرقد فيه، جامدا وبلا حِراك، بينما تنفّسُه يتقطّع، ويضطرب اضطرابَ الشّمعة تقريباً، التي تواجه هبوبَ الرّيح؛ الى أن اعتقد الجميعُ بأنّ نهاية الجَدّ قد أزِفَتْ، منذ وقت سابق. إلاّ أنّ الشّيخ ذا الجثّة الضّخمة والوجه المنتفخ، لم يلبث أنْ فتح عينه اليسرى على حين غرّة، فأخذ يتفحّص (بنظرات طويلة حَنَتْ منه، ليس فيها لمعانٌ ولا علامة تشي بالأمل، ولا حتّى بالألم!)، في وجوه الأقارب والجيران الذين اجتمعوا حول سريره، دون أن يظهر عليه بأنّه تعرّف على أيّ منهم، ولا انتظر حتّى أيّ شيء من أحدهم. لبث على تلك الحال، يرنو الى الوجوه المحيطة به، ويتنقل بعينه ذات اليمين وذات الشّمال، الى أنْ رمق بالصّدفة تابوتاً، هُيّء سلفاً لاحتضان جثمانه، وكان مصنوعاً بشكل فجّ من شجر التّنُوب، الذي ما زال لطراوة عوده، تفوح منه رائحة فاغمة؛ وقد وُضِع على الأرض بجانب قطعة كفن بيضاء، حال لونها قليلا، لتناوب مواسم الشّمس والمطر عليها. حينها، أخذ الجدّ الأكبر في النّهوض من فراشه

ببطْءٍ، عكس القوانين الطّبيعية كافّة، وكأنّه حاول بفعل ذلك البُطْء الشّديد، أنْ يرفع جبلاً ما، أو يدفع عنه ملاك الموت، الذي سبق أنْ صرعه. استمر الجدّ العجوز على تلك الحال البطيئة، يحاول النّهوض من سريره، الى أن تمكّن أخيراً من الوقوف على قدميه، من جديد. بعد ذلك، دنا من النّار، التي كانت شُعْلتها تلتهب في الموقد، دون أنْ يُوَجّه نظراتِ عينِه الوحيدة، التي بدا عليها أشبه بمَصّاص دماء، الى أيّ أحدٍ من المحيطين به، ثُمّ أخْرج بكيفيّة بطيئة جدّاً هي الأخرى، قطعةَ لحم مجفّفةٍ ومُعطّرة من القِدْر، الذي كان يغلي فوق النّار، ويضُمّ طعامَ العشاء المفترض تقديمه وفق العادة المتّبعة منذ القديم، في ليلة العزاء. بعدها، شرع في الْتِهام ذلك اللّحم، في لُقَيْمات سريعة، بدا خلالها الجدّ الأكبر وكأنه لا يسعى الى إسكات جوعه، وإنّما الى صُنْع مَقْلَب من المقالب، لأحدهم. ثمّ أمسك بالفأس الثّقيلة، بكيفية بدا أثناءها، وكأنّه يتحرّك بمفرده وسط غرفة خالية من البشر، وصار (وهو يرتعد من شدّة التّأثُر، ويتأوّه مثل حيوان مريض!)، ينزل بالفأس على التّابوت البالغ مترين طولا، وبعَرْض مَنْكِبي العجوز الهائلين، وتتضوّع منه رائحة الغابة، الى أن صيّره مجرد حطام. حينذاك، ترك الفأس تهوي من بين يديه، وقِطَع التّنُوب البيضاء ذات الرّائحة الفاغمة، تتمدّد من تلقائها على بلاط الغرفة، وكأنّها حطام يتهدّد الأقارب والجيران بالهلاك، لا سيما أنّهم اعتقدوا بأنّه لم يكن يريد من وراء ذلك البعث غير المنتظر، الذي أعاده مجدّداً الى الحياة، إلّا السّخْرية منهم للمرّة الأخيرة، وهو ما عدلوا عنه مباشرة بقناعة راسخة، حين فتح الشّيخ عينه الثّانية، وهو يبتسم ابتسامة ماكرة، زادتْ كثيرا من نسبة التّغضُن والإنْثناء على صفحة وجهه المجعّد، فأخذ بجثته الضّخمة والمُنْتفخة وكثيفة الشّعَر، يركّز النّظر على أعينهم، ويتفحّص فيهم طويلا بكيفية فيها ازدراء، بينما رائحة البول والموت تفوح منه؛ ما جعلهم يُنكّسون العيون، ويشرعون في التّراجع الى الخلف، في تدافع قوي، مرتعشين من مغبة ما قد يقع لهم، وهم

لا يرتابون أبدا من أنّهم سينتهون، وسط وابل الشّتيمة والسّباب المدوّي، الى الطّرد من ذلك البيت، الذي سبق للجدّ أنْ بناه بيديه في فترة الشباب، حتّى يؤكّد لهم بذلك أنّه أبْعَدَ الموتَ عنه، حقّا! إلّا أنّه لمّا فتح شفتيه، فيما بعد، لم يُعَبّر سوى عن رغبته في أنْ يُصنع له، من ذلك الكَفَن، قميصا وتُبّانين. وظلّ هذا الجدّ يرتدي ذلك اللّباس، خلال السّنوات التّسع التي عاشها بعد ذلك الحادث، كلّما اضْطرته الظّروف الى تشييع أحد هؤلاء الى مثواه الأخير، من زُمرة الأشخاص الذين حضروا أطوار تلك اللّيلة المشهودة، وعاينوا كيف انْبَعث من بين الأموات حيّا، بعيونهم المرعوبة! والآن، وبينما هو يفكّر في هذا الحادث، بوصفه معجزةً لم يسبق لأحد قطّ، أنْ نجح في فكّ طلاسمها، انتابه ما يشبه الحَدْس الغامض، الذي يُسْتفاد منه بأنّ هؤلاء الذين انتظروا لحظة انطفاء يوكسيم، بنوع من اللامبالاة، تمكّنوا بفعلتهم تلك، من مدّ الجدّ بالقوّة التي ضاعت منه، وإفراغ ما يكفي من التّحدي بدخيلته، حتّى يستعيد مسار حياته، الذي سبق أن توقّف. وعلى إثر هذا، شعر بالسّعادة والفرح، لكونه تمكّن من الكشف عن هذا السّر: ألن يجد هو في الحنق أيضا، مثله مثل يوكسيم العجوز، الذي ينتسب الى سُلالته، الخلاصَ الذي لم يستطع إيجاده في الحُبّ؟ وبذلك، بدا له فجأةً، بأنّه صار أكثر خفّة ورشاقة من ذي قبل، وبأنّ قوةً ما مجهولةً أخذت تندسُّ بداخله، من خلال قدميه الحافيتين والجريحتين والدّاميتين. فانتهى به الأمر الى الاقتناع بفكرة، تفيد بأنّ بمستطاعه - إنْ هو استفاد من الحَنَق الموجّه لهؤلاء، الذين يجرون خلفه - أن ينفلتَ من قبضتهم، قبل العودة الى تدارك أنفسهم.

حينها، ارتدّ على أعقابه فجأة، وكأنّه واحد من طيور النّوارس البحريّة، ثمّ استأنف الرّكض أمام أنظارنا، التي بقيت ذاهلة ومندهشة. كان يركض، ويركض بكيفية سريعة جدّا، دفعتْ بنا الى الإعتقاد، بأنّه لم يكن مدفوعا سوى بقوة خارقة، لا تبصرها أعيننا أبدا.

وفي الوقت الذي استأنف فيه العَدْو، وهو مدفوعٌ بثقل يأسه، أدرك بأنّه يستمدّ الدّعم والمدد، من جدّه يوكسيم الرّهيب، الذي شحنَه بنسبة هائلة من الحنق، والقوّة الخارقة. وبهذا، منحه ذلك الإتّصال البسيط مع جدّه الأعلى (الذي بقدر ما ظلّ حقيقيّا، بقدر صار مع ذلك شخصاً أسطوريّا، على نحو كبير)، الأملَ العجيب الذي جعله يؤمن، بأنّه سينجح في الإنتصار على قَدَره، رغم الفاصل الهائل في الزّمان والمكان بينهما.

الله وحده كان يعلم السبب، الذي دفعنا الى الرّكض وراءه. مؤكّد أنّ لا الكراهية ولا الغلّ، هما ما دفعنا الى ذلك. لم تعد ثمّة كراهية تقوى على الدّفع بنا الى مطاردة ذلك الشّبح، الذي جمّد الدّمَ في عروقنا، وجعل بشرتَنا تقْشعر. الدّافع كان شيئا آخر إذن، أعْتى وأخطر. ربّما الموت الذي ارتسم على وجهه، ولم نتعرّف عليه منذ الوهلة الأولى، هو ما دفعنا الى ذلك، فلم نستطع الصّمود معه. إذ لم يعد يهمّنا في تلك الأثناء، أن نعرف ما إذا كنّا نلاحق ذلك الشّبح المرعب، كي نسحقه قبل الوقوع ضحية الموت، الذي يسكنه، أم كنّا أشبه بظلال مخصيّة، لا حول لها ولا قوة في تلك الأثناء، وقد هبّت - بعد أنْ وقعت تحت تأثير إرادته السّحرية - تطلق سيقانها للرّيح، للإلتحاق به، وحسب.

وبدأ الأمل يخامره في كونه، إذا استمر في تنسّم نَفَس الجدّ الأعلى يوكسيم، فإنّه سيفلح في جعل السّاعات القليلة المتبقّية من عمره، تصير تسعَ سنوات من حياة مديدة وطويلة.

بالطّبع، كان كلّ منّا يقاوم، بالكيفية التي يرى أنّها الأفضل، حتّى يصدّ عنه فكرة أنّ ذلك الشّبح، سيتمكّن في النهاية من الإيقاع بنا، بمطبّ من

المطبّات: البعض كان يرسم إشارة الصّليب على صدره، والبعض الآخر يبصق باتّجاه الهارب، وفريق ثالث يغنّي؛ وذهب الأمر بالبعض حدّ البكاء خُفْيَة، بينما بقيَتِ النّسْوة المتّشحاتُ بالسّواد في المؤخرة، يواصلن التّأوُه والنّواح، وهنّ يبكين على مصيرنا، أو ربّما على مصيرهنّ.

وذهب به الأمر حدّ التّساؤل عن السّبب، الذي جعله يُخْضِعُ أيّامه وسنواته للْعَدّ والحساب، والسّبب الذي جعله لا يأمل في شيْء يكون أفضل وأجمل، ولا يحدّد لنفسه كهدف، بلوغَ العمر المديد الذي تمتّع به جدّه الأكبر يوكسيم: لقد صار يُدْرك الآن، بأنّ ثمّة عقاراً مخصّصا لعلاجه، ضمن حالة التّعقيد الشّديدة التي تتّسم بها الطّبيعة، لسوف يُكْتشف ربّما، ابتداء من الغد. فشرع في التّعَود على هذه الفكرة، وهو يركض بكيفية أسرع من ذي قبل، وقد شعر بأنّه مستعدّ لذرف دمعه، امتنانا وعرفانا منه لذلك الشّخص المجهول والوديع، الذي تخيّله يعمل، وهو وحيدٌ وحزينٌ، لكنّه سيجلب - لنفسه خاصّة وللعالم قاطبة - السّلام؛ بفضل اكتشافه العَرَضي ربّما، لذلك العُقار.

أطلقنا النّار في الهواء، أو ربّما صوب ذلك الهارب المُنْفلت، ونحن نجهد أنفسنا ثلاثتنا، إياكوف والحارس وأنا، كي ننفلت مثل الآخرين، من الهلع والرّعب وجميع تلك الأشياء، التي ظَلّت تجول بِخَلَدنا.

ثُمّ أدركه الخوف فجأة، من كونه لن يعيش ما يكفي من الوقت، وأنّه سيموت بفعل مقلب القَدَر الماكر، في اليوم الذي سيتمّ فيه اكتشاف ذلك العُقار، الذي يمكن أن ينقذ حياته. وعلى إثر هذا، تجلّتْ له من جديد، صورة تفسّخه وتحلّل جثته في مشهدٍ رهيب.

مهما يكن، فإنّا توقّفنا عن كره ذلك الشّخص، والحنق عليه بصفة تامّة، وصرنا مسكونين فقط، في تلك الأثناء، بفكرة أنّ بيننا وبينه، بعضَ الرّوابط العجيبة وغير المرئية، التي خلقتها قوى شرّيرة؛ بينما هو آخذ في الانحدار مجدّدا، باتّجاه السّهل ذي اللّون الأصفر، بطوله الفارع وغير الواقعيّ تقريبا، وسط أشعّة الشّمس المرتجفة والسّاطعة.

وساوره الإعتقاد بأنّ نهايته وشيكةُ الوقوع لا محالة، إنْ لم تقع على الفور، مثل جدّه الأكبر الذي أدرك هذا في حينه، ففرّ منه في تلك اللّحظة الرّفيعة، وهذا ما ظلّ ذا شأنٍ خارق، يفوق قدرة البشر على تصوّره. وواصل العدو لبضع لحظات، وهو يتساءل عمّا كان بوسع ذلك الجدّ فعله، هو الذي بقيتْ قوتُه وحنقُه يسندانه، لو أنّه وُجِد اليوم، في مكانه؛ ثمّ خطرت بباله في تلك الأثناء، وكأنّ الأمر يتعلّق بحدس غريب، فكرةُ أنّ العجوز يوكسيم سيحسن ولاشكّ، مثله مثل أيّ حيوان دُسّ له السُّم في الطّعام، التعرّفَ على النّبْتة التّرياق التي سيكون بمقدورها إنقاذ حياته، من بين آلاف الأعشاب والنّباتات الرّائعة والنّابضة بالحياة، التي تغطّي أرضية هذا المرعى. وبدا له في اللّحظة ذاتها، وكأنّ شخصا ما يمسك بيده، ويدفع بها في اتّجاه المنطقة العُليا من ساق نبتة محدّدة، تبيّن له أنّ اسمها اللّاتيني، الذي هو أتْروبّا بيلّادونا Atropa belladona، أجملُ بكثير من أيّ اسم من أسماء النّساء. حينها انتزع في خضمّ ركْضه المُتسارع، ودون توقّف، ورقةً شبيهةً بأوراق التّبغ، وقرّبها من شفتيه المتشقّقتين، وكأنّها كانتْ قطعة أثريّة، أو تحفة. وبعد ذلك، قضم منها قضمة واحدة، فأحسّ فوراً بداخل فمه، الذي جفّ حنكه، مذاقَ القِلْويد المُرّ والسّام. بالتّأكيد، لم ينتظر من تلك الورقة الطّويلة والخشنة، التي تكسوها زُغَيْبات بيضاءُ، أيّة معجزة، لكنّه شعر بغتة، وسط ذلك المرعى

المترع بالألوان البرّاقة والرّوائح المُسكرة، برغبة يائسة في البحث عن النبات الطبّي، الذي خطر له على البال اسمَه، من قبيل: الأقونيطن، والبيلادونا، والأرْغوت، والداتورة، والبَنْج، والسّورَنْجان، والقَمْعية، والأدونيس، والخرذل الأسود، وعنب الدّب، والجنطيانا، ونبق الوادي، والصّابونية، والكُنباث، وعشب القوى، والشيب المخمّس، وخشيش السّعال، والعرعر، والهتونية، والسّحلبية، والرّاسن، وإكليل الملك، وقمم الآسّي. ثمّ جثا على الأرض بركبتيه، وهو مأخوذ بفكرته، وكأنّه حيوان حُرم من غرائزه كلّها، وراح يتحرّك على أربع، بهيئة المُسْتهام.

وإذا به يختفي عن أنظارنا، بشكل غير قابل للتّصديق ولا للتّفسير، كما سبق له أن ظهر تماما أمام أعيننا، بطريقة فجائيّة مع الفجر، أنا وإياكوف؛ فتبيّنتْ لنا بالملموس طبيعة القوة المنيعة، التي تميّز الصّلة التي تربطنا به، لأنّنا عوض الشّعور بالإرتياح والفرح، لتخلّصنا منه في الأخير، تملّكنا جميعا هياجٌ عارمٌ، وكأنّما صار الإستغناء عنه، أمرا يستحيل علينا!

ظلّ يَدُسّ في فمه، كافّة الأعشاب والنباتات الطبّية التي استطاع التّعرف عليها، أو ظنّ على الأقل أنّه تعرّف عليها؛ وهو يزحف بلا انقطاع على يديه ورجليه، فوق أديم الأرض، ويبتلع بشراهة اليائس، دون أن يهمل أيّة سَبَلة ناضجة، أو أيّ قِرْن أو ورقة من الأوراق، سواء أكان مذاقها حامِزا حرّيفا، أم حلوا، أم كانت بعُصارة كثيفة، ودون تجاوز أيّة زهرة برّية، أكانت زرقاء، أم ورديّة، بنفسجيّة، خضراء غامقة، حمراء أم بيضاء؛ لأنّه لم يكن يعرف بالضّبط، أين يكمن سرّ خلاصه. وما هي إلاّ هنيْهات، حتّى استبدّ به التّقزز، وانتابه الغثيان. لكنّه ظلّ يشعر بالفرح، لأنّه استطاع إقناع نفسه بأنّه أدخل الى

معدته، استنادا الى مختلف الطّعوم التي تذوّقها، وهو يقضم تلك الأعشاب، مجموعةً من المواد الكيماويّة الخام، بما فيها الكومرين والتّانين، السّابونين والكلْيُكوسيدات الأخرى، وبعض مكوّنات الفينول، والكلوروفيل، والأحماض العضويّة، والمواد المخاطيّة، والزّيوت المركّزة، والأربوتين، والسُّكَر، والمواد الكيماويّة الأخرى التي ما تزال مجهولة. وبهذا، أمِلَ في أنْ يمتزج كلّ ذلك الخليط فيما بينه، بعد التّفسُخ والذوبان في فمه، وامتزاجه باللّعاب، ليعطي مادّة جديدة ذات مفعول خارق، من شأنها أنْ تُشفيَه بصفة تامّة.

مّا شعرنا به لم يكن استثنائيّا، ولا غير عاديّ: فهذا الشّخص تدخّل في حياتنا بكيفية فعليّة، حتّى لم يعد يمكننا القبول بفكرة فقدانه، ولا إضاعته الى الأبد.

عندها، تمدّدَ بكامل قامته فوق العُشب، وأغمض عينيه. لم يعد يشعر بالتّقَزز ولا الإشْمئزاز، بعد ذلك. هدأ على نحو تامّ، واطمأن، ثمّ استرخت عضلاته، واعتقد أنّه نجا، وأنّه سيبقى على قيد الحياة.

بحثنا عنه لفترة طويلة، ونحن نُفَتّش في كلّ الجنبات المحيطة، ونطوف ببصرنا على امتداد السّهل العاري. لكنّه بقي بلا أثر. ومكثنا هكذا، الى أنْ رأينا في نقطة بعيدة، طيوراً تُحاول الحَطّ فوق موقع محدّد من الأرض، لكنّها لا تلبث أن تحلّق عاليا، وكأنّ شيئا ما هناك، كان يفزعها؛ فانطلقنا جميعا دون تردّد ولا تقاعس، نعدو في اتّجاه تلك النقطة بالذّات. كان إياكوف وحارس الغابة يركضان في المقدّمة، ويطلقان عيارات النّار بشكل متناوب،

وكأنّما أرادا تذكير ذلك الشّخص المختفي على نحو غامض، بأنّا لم نتخلّ عن ملاحقته، وأنّا جادّون في البحث عنه، لإلقاء القبض عليه.

أجبره التّفكير في هؤلاء، الذين يلاحقونه، على فتح عينيه: بدا كمن يُمْعن النّظر في عنان سماء لا تُحدّ، لكنّه كان لا ينظر إلّا داخل ذاته، في الواقع. حينها، تساءل: «أنجوت؟ أثمّة خلاصٌ ما؟»، لكنّه لم يتحرّك. بقي ممدّدا فوق الأرض، هادئا وراضيا عن نفسه، وقد وعى بأنّه فعل كلّ ما في وسعه فعله، لأجل الخلاص: لم يعد هناك أيّ شيء يتوقّف عليه، الآن!

كنّا نُشَجّع بعضنا البعض، بشكل متناوب، ونحن نعدو كيفما اتُّفِق، لأنّ الشّمس في ركضها المتسابق نحو الغروب، انحرفَتْ منذ وقت صوب قمم الجبال الحادّة، فغدت الطّيور المفزوعة الآن، تحلّق في سرب غفير فوق رؤوسنا، باحثة لها عن مكان لتحطّ فيه، حتّى تخلد للنّوم ليلا. لذلك، لم يعد لدينا إذن، المزيد من الوقت لنُهْدِره، فصرنا نعوّل على الصّدفة فقط، أو الحظّ، ليُسعفنا أيٌّ منهما بالعثور مجدّدا، على ذلك الهارب.

غاصت نظراتُه مرّة أخرى، في فراغ السّماء الرّحيبة، فتوقّفت عند غيمة بيضاء مَنْفوشة، ظنّها في لحظة ما قمّة بريكورْنيثْسا المجلّلة بالثّلوج، فاهتزّ فرحا لفكرة اقترابه - رغم كلّ شيء - من مونتينگرو، وأنّه سيفلح ولاشكّ أيضا، في الوصول الى مسقط رأسه، إذا لم يعثر عليه ذلك الرّهط المسعور، قبل حلول الظّلام. لذا، قرّر انتظار هبوط الليل هنا، حيث كمن متخفّيا الآن، بين الأعشاب المتطاولة.

وقع بصرنا، ونحن نعدو بوتيرة سريعة، على كوخٍ معزولٍ يقع على يسارنا، بدا وكأنّه خرج من باطن الأرض. وكان هناك على ما يبدو، قرب جدار الكوخ المجلّل بالأصفر، والمصنوع من جذوع الأشجار المربّعة الشّكل، شبحان آدميان: رجلٌ وامرأة. ظلاّ يلوّحان لنا بكيفية بطيئة بذراعيهما، وهما على هيئة من كان ساهيا عمّا حوله، وكأنّ الذراعين اللّتين يلوحان بهما، ليستا ذراعيْهما، بالكلّ؛ في حين بقي كلبهما، الذي لم يظهر للعيان، ينبح بصوت باحّ.

ومع هذا، لم يقو على مقاومة غواية النّهوض. ألقى نظرةً شاملة على ما يحيط به، بعدما وقف بصعوبة كبيرة على قدميه، اللّتين تورّمتا وجرحتا. كان متيقّنا من أنّ عينه اليسرى (ظلّت اليمنى مغمضة، مثل يوكسيم لحظة انبعاثه!)، سترى هؤلاء المندفعين يقتربون منه، في فورانهم المحموم، دون أن تصدر عنهم أيّة نأمة، بينما ألسنتهم ممدودة في وجهه، وعيونهم جاحظة، وهم يحملون البنادق والرّفوش والسّواطير والسّكاكين والعِصي. لكنّه اندهش أيّما اندهاش، حين لم ير أيّ شيء من ذلك. ولما فتح العين الثّانية، تأكّد من أنّه كان وحيدا، بالفعل.

لماذا لم يتوقّف ذلك الرّجل ولا تلك المرأة نهائيّاً، عن التّلويح بذراعيْهما لنا، في إشارة يُفْهم منها التّوديع؟ ولماذا ظلّ كلبهما ينبح، ذلك النباح الأبحّ والمرعوب، وكأنّه تنسّم رائحةَ الموت فينا؟ ولماذا كنّا يائسين الى حدّ الجزم، بأنّ ذلك الشّخص الهارب نجا بالفعل، منّا؟ وهل كنّا بحاجة إليه، الى هذا الحدّ؟ أم أنّا لم نكُ نحاول سوى خداع أنفسنا، والهرب من ذواتنا؟ ثمّ، ما الذي حدث لنا، حقيقة؟

بعد ذلك بقليل، أبصر ذلك الرّهط المسعور مرّة أخرى، نازلا من مُنْحَدَرٍ صلْب على مبعدة منه، جهة اليسار، وقد أخذ في التّحويم حول نفسه، مثل خَشْرَم من النَّحْلِ النّافر والمُتفرّق. فظنّ أنّ هؤلاء، وقد رآهم على تلك الحال، ملفوفين بضوء أَغُسْطس المخادع، أرواحُه الشرّيرة التي حرّضها على الظّهور للعيان، بيأسه من عدم التّحَكم في نفسه، والهروب للنّجاة من الحقد والحنق؛ ما منحه الحقّ في توجيه كراهيته للعالم، الذي أُجْبر على توديعه. مثلما ظنّ بأنّه خلق ذلك الألم الذي سكن معدته أيضاً، وأنّ جميع ما حصل له هذا اليوم، الذي يُعَدّ مُعاكسا وعنيدا، لم يكن سوى هلوسة وكابوس غريب، وُلدا منه، هو بالذات. فانتابه الفرح لرؤية هذا الكابوس يبتعد عنه الى الأبد، مصحوبا بتلك الأشباح المثيرة للضّحك، التي تتهيّأ للإختفاء بعيدا، وسط ضوء الغروب الشّفقي ذي الحمرة النّابضة. وعلى إثر هذا، أحسّ بدفق القوّة يُعاوده، لكنّه لم يعد يفكّر في الهرب. صار بمستطاعه أن يحدّد موقعه أخيراً، ضمن هذا الفضاء غير المحدود، لأنّه تأكّد من انفلاته من قبضة الموت. ولأنّه تعلّم من كافّة الدّروس، التي ما لبثت أن مرّت به، واختفتْ في حفرة الماضي الى الأبد، فإنّه سيعرف كيف يتعيّن عليه أن يحيا، منذ الآن. لأنّه أماط اللّثام عن السّر، فغدا معنى الوجود الحقيقيّ في النّهاية، هو: ألّا شيء يملك معنىً، بمعزل عن الحبّ والجمال. فتملّكَتْه على الفور، الرّغبةُ في شمل كلّ هذه البلدة الموحشة والمجهولة والرّحبة، حيث نجح في إقناع نفسه بنفسه، بنظرةٍ واحدةٍ ووحيدةٍ. نظر الى اليمين والى الشّمال عدّة مرّات، وبعد أنْ لم يعد يحسّ بخِشْيةِ الموت ولا البشر، أطلق ساقيْه للرّيح، وراح يركض في اتّجاه صخرة كبيرة ذات قمّة مسنونة، كانت تنتصب مثل فُطْر مَثْلوم، وسط السَّهْل المترجرج. لم يعد يشعر بالألم، ولا بالتّعب. كما لم يعد يفكّر حتّى في العجوز يوكسيم، كذلك. لم يعد بحاجة الى مساعدة أيّ شخص.

كنّا على معرفة تامّة بأنّ ذلك الرّجل، الذي اختفى عن عيوننا بكيفية ملتبسة وغريبة، يملك الإجابة عن كافة الأسئلة التي ولّدها فينا الخوف والإرتباك. لذلك، لم نقو عن العدول عن التحرّي عنه أبدا، حتّى ولو بقي الأمل في العثور عليه، ضئيلا جدّا!

صار ينتصب واقفا الآن، فوق قمّة الصّخْرة، وهو يلهث، ويشعر بالفرح، بينما مكث مطاردوه في البعيد، بصفوفهم المبعثرة والمتناثرة، يهيمون على وجههم، بلا بصيرة أو هدف. كما أنّهم لم يعودوا يُروْن، وسط ذلك الفضاء الفسيح، حيث تتداخلُ الأرض بالسّماء، إلا على شكل حفْنَة من كائنات آدميّة، وقعتْ في مطبّ الحَيْرة والضّياع. رآهم ينحنون، ويغوصون في الأحراج، ثم يخرجون منها، وقد تملّكهم الغيْظ الشّديد، لينخرطوا بعد ذلك في الدوران على أنفسهم مثل الدّبابير، التي وقعت في أسْر دائرة زجاجيّة. رآهم في وضع أدْعى الى الشّفقة، وأشدّ ضلالةً وتيها، حدّ أنّه لم يستطع الشّك في وجودهم الفعليّ. بل ذهب به الأمر الى حدّ أنّه رغب في قذفهم بالشّتيمة، وتوجيه حركةٍ تومئ بالتّحدي إليهم، لأنّه تأكّد من أنّه ابتعد كلّ البُعد عن أيّ خطر، وكأنّه ارتقى قمّة بريكورْنيتْسا المُكَلَّلة ببياض الثّلج.

في خضمّ دورانا المنذور للتّيه والتّعثر وفقدان الأمل، عثرنا بالصّدفة على نبع مائيّ، كان حبيسَ حوض طبيعيٍّ أشبه ما يكون ببحيرة صغيرة، أو بعين جبليّة بنفسجيّة تُثَبِّت النّظر في صفحة السّماء اللاّمحدودة، وذات الحواشي الملتهبة. كانت جميع دواخلنا تفور، على نحو مفرط للغاية، بسبب السّباق الذي خضناه، وظلّ العرق يبلّل أجسامنا كذلك، لكنّ ما من أحد قرّر أن يشرب. انكفأنا جميعا على أنفسنا، ضمن حركة الإغْواء الأولى التي

مورست علينا، على إثر رؤيتنا لذلك الماء الصّافي والبارد، وانحنينا في اتّجاهه، كي ننعش دواخلنا بنسماته، دون أن يتبادر الى أذهاننا بأنّ وجوهنا، التي استنفدها التّعب، حتّى صارت ضائعةَ السّمات، وتشوّهت ملامحُها بسبب تضارب الإنفعالات العاطفيّة، ستنعكس صُوَرُها على صفحة ذلك الماء الشّبيهة بمرآة حقيقيّة. بعد ذلك، أهملنا كلّ احتراز، وانهمك الكلّ، في تحريك صفحة الماء بالأيدي، وتفتيت أصول تلك الصّورة البذيئة والقميئة، التي خانتنا أمام نظراتنا الخاصّة، وكأنّا أبرمنا اتفاقا فيما بيننا على ذلك: كنّا نرتوي من ذلك الماء الزّلال، لإطفاء لهيب العطش الرّهيب، الذي انتابنا، وقد تمدّدنا على الأرض ببطوننا، في صفّ متراصّ البنيان، كان على هيئة دائريّة تحلّقنا فيها حول ذلك الحوض المنعش، وكأنّما كنّا حيوانات متوحّشة!

لم يعد يشعر حقيقةً، بالخوف من أيّ شيء. كان في وقفته فوق الصّخرة، يترنّح قليلا وكأنّه تعرّض للدّواخ، بينما أرسل نظره من فوق، باتّجاه العالم الرّحب الذي يمتدّ بعيداً، تحت قدميه؛ ثمّ إذا بفكرة طارئة تخطر بباله: «ومع هذا، لم يعد هؤلاء موجودين بالكلّ، لأنّي نجحت في الإنفلات من قبضتهم، الى الأبد!».

بعدها، مكثنا جامدين للحظات، ونحن نتمدّد فوق العشب، وكأنّ انتعاشة ذلك الماء البارد كانت لها تقريباً، آثارٌ طيّبةٌ ومدهشةٌ علينا، ما ساعدنا على استعادة قوانا، فاستفاق بداخلنا توازن نفسيٌّ ظلّ مفتقدا، ووئام داخليّ بات للحظات طويلة، منعدما؛ ثمّ استبدّت بنا الرّغبة في التّخلي عن ذلك المخلوق اللّعين، ونسيانه ضمن نطاق الممكن، نسيانا تامّا، وتركه لمصيره.

لقد أفلت منهم، رغم كلّ شيء، وغدا بالنّسبة إليه ممكناً، أن يستنتج من هذه الحقيقة البسيطة وغير القابلة للتّفْنيد، بأنّه ظلّ أسرَعَهم جميعاً، وأقدَرَهم على التّجَلد والتّحَمل؛ ما يؤكّد لوعيه بشكل كافٍ، وهو الوعي الذي بالكاد انتبه الى هذا، بأنّه ما يزال في صحّة جيّدة. ومن ثمّ، اسْتنتج بأنّ التّشخيص الأخير، الذي سُجّل بكُرّاسه الصحّي، لم يحصل إلاّ عن طريق الخطأ، لأنّ ذلك لا يمكنه أن يتلاءم، إلّا مع حالة مريض آخر غيره. لقد تيقّن من هذا الآن، مثلما تيقّن من أنّه كان بالتّأكيد، سيُميتُ نفسَه بسبب تلك الكلمات اللّاتينية الثلاث، التي لم تكن تعنيه حتّى، هو بالذّات، لو لم يلْتَق بهؤلاء النّاس بالصّدفة، ولو لم يستَثِرْ فيهم، بمجرد ظهوره وحسب، ما لا يحيطُ به من حاجة غريزيّة يائسة، للقبض عليه وقتله، ربّما؛ وهذا ما جعله يجتاز كافّة الإختبارات، وذلك الحلم المزعج والثّقيل، الى جانب اجتيازه لهذه الغابة الغريبة، وهذه النّاحية الخفيّة والغامضة من أعماق ذاته. وبهذه الكيفية، توصّل في نهاية المطاف، وقد تطهّر، الى اسْتيعاب دلالةِ الحياةِ، والقبضِ على جوهرها، واكتشافِ طريق خلاصه الحقيقيّ، وسط العتمات التي سبق له أن ضَلّ طريقه وسطها، وهو الآن فوق ذلك العلو غير المتوقّع، والمنيع عن الرُّؤية. ثمّ إذا به يُحسّ بغتة، وقد اندفع وسط تيار أفكاره، بامتنان وتقدير عارمين ودافئين، لتلك المخلوقات التي أثارت فيه الشّفقة والضّحك. إلّا أنّه شرع يأسى للتّو، وقد تبيّن له عبثُ تلك الجهود المبذولة في سبيل العثور عليه، ويأسف لحالهم: إذ اتّضح له بذلك تحديدا، تفوّقه الكبير على جميع أولئك الذين أشعروه بالخوف، من قبل، فظلّ يفرّ منهم.

بعد صمتٍ طويل، صاح أحدُهم قائلا: ماذا لو لم يكن هذا الرّجل موجودا، بالفعل؟! كان هذا السؤال غير المتوقّع والعبثيّ على ما يبدو، ينطوي

على شيء مخيف وخطير. لذلك، نزلنا جميعا باللّائمة على ذلك المجنون، الذي تصوّر بأنّه لم يكن يطارد، طيلة نهار كامل، غيرَ شبح أو مجرد فكرة وهميّة. إلّا أنّ هذا طفق يضحك، ثمّ قال: إذا كان من نطاردهً كائنا حيّا بحق، فعليكم أن تفسّروا لي أين يمكنه أن يختفي؟ وكيف استطاع التّواري بين أطراف هذا السّهل الخالي؟ هل تحوّل من هيئة إنسان الى طائر، أو جرذ؟ أو ربّما صعد فوق السّحاب، أو تبخّر من فوق هذه الأرض! وإلّا فإنّ نحلة ما ابتلعته، أو صار بسرعة غير مرئي! ركَنّا مرّة أخرى الى الصّمت، لأنّه لم يكن لدينا أيّ شيء، يمكّننا من الإرتكان إليه في إجابتنا. كلّ شيء بدا لنا غريبا، فجأة: ذلك الشّخص الذي ظهر لنا الآن، بأنّ وجوده ليس ثابتا ولا مؤكّدا، والغريزة التي دفعت بنا الى خوض هذه المطاردة الحانقة، فانتهتْ بجعلنا لا نكاد نتعرّف على أنفسنا بالذّات.

كان في الواقع، متيقّنا من بلوغه قمّةَ بريكورْنيتْسا البيضاء، التي ركض باتّجاهها في طفولته، أثناء تلك اللّيلة الرّهيبة التي فرّ خلالها، من الرّجال؛ لقد استطاع بارْتِقائه فوق أعلى صخرةٍ في السّهل، الشّبيهة بسَطْح العالم قاطبة، أنْ يشمل مجموع حياته، بنظرة واحدة: ما مضى منها، وما سيأتي. وصار كلُّ ما يتّصل بعلاقة ما معه، يدور في حلقة مغلقة، يدقُّ قلبه في مركزها بهدوء، مثل دقّات الجرس التي ما إنْ توقّع، حتى تخلّف وراءها طنينا متواليّا. ومن دون أن يشعر بالدّهشة، بسبب ذلك، رأى أشياءً كثيرة تمرّ في استعراض متزامن، أمام عينيه: رأى أطيافَ جبالٍ مُسنّنةً وبنفسجيّة، وشواطئَ مغمورةً بالشّمس، تفيض بسواد بشريّ؛ وسفناً وحيدةً في أعالي البحار؛ وبحيراتٍ مترعةً بمياه وفيرة؛ ووديانًا غارقة في سَبات عميق، تُحَلّق فوقها الطّيورُ ببطء؛ وغاباتٍ شاحبةَ اللّون تئنّ، خلال لحظات الغَلَس الرّمادي المسكون بهبوب

الرّيح؛ وجميعَ المدنِ البعيدةَ والمجهولة، وجميعَ البلدان التي رغب في زيارتها؛ وكافّةَ البوادي الضّائعةَ في مونتينگرو، التي يحمل هو في قلبه ودمعه، معاناتها ودماءها، وكأنّما هي محفورةٌ فوق خريطة ما، ومن بينها قريةُ بريستوفو على الخصوص، التي تلتحم بالحجر المُسْودّ والمتلاحم، وتربتها التي تتملّص في جهود يائسة، وأشجار التّين والأفِسْنتين والنّشم؛ وغوريتسا المغبرّة المحاديّة لجدريبانيك؛ وزيطا الباردة ذات الأسرار الخفيّة، بمياهها الزّرقاء الغامقة، التي أبصر في حضنها خلال تلك الأثناء، انعكاسَ وجهه المتخفّي للأبد: زاكا راتِشْ الضّائعة في الصّمت، وأشواك العلّيق المتساقط زهرها، وأزهار النّسْرين البرّية؛ ودوّامات سوشيتسا المثيرة للغثيان، حيث كان يرعى على ضفافها الأبقار، بينما نقيق الضّفادع يصمّ أذنيه؛ وبحر بيتروف وبودفا الصّافي والنّقي، حيث ذهب على شاطئه، حدّ الشّعور بالفرح، في بعض الأحيان؛ ثمّ جميع تلك العِلّيات ببلغراد، التي ذاق فيها، على امتداد سنوات بعينها، طعمَ الجوع ومذاقَ تركيباته الكيمائيّة، وهو يحلم بحياة أخرى أفضل وأجمل؛ ثمّ أخيرا غرفة السّطح، التي تقع بشارع برتشانينوفنا، تلك الغرفة الغائصة في الظّل والعتمة، حيث فَقَد روحَه، التي تحوّلت معه الى مختبر، لوثته المواد الكيمائيّة. ومع ذلك، فإنّه يراها مرّة أخرى، خلال هذه اللّحظةً التي يتعذر قياسُ مداها الزّمني، لامّحاء الفرْقِ فيها بين الذّكرى والحَدْس، لأنّ مجموعة من الأزمنة تنثني في وعيه فجأةً، بما فيها الماضي والحاضر والمستقبل، لتؤول في النّهاية الى حُزْمَة من الضّوْء المُرَكّز. وإذا به يتعرّف، من بين صفوف النّاس، التي برزتْ أمامه على حين غرّة، وشكّلتْ حلقةً مُغْلقة ومتراصّة الصّفوف حوله، على والده ووالدته، وعلى جدّه الأعلى يوكسيم، وعلى أسْلاف بعيدين، وأقارب قُدامى، وأصدقاء الزّمن البعيد، وأصحابِ التقى بهم لقاءات عابرة، وعلى مسافري القطار، ومطارديه اليوم؛ تعرّف على كلّ مَن فُرض عليه، ذات مرّة أو حين، أو أضرّ به من هؤلاء وأولئك؛ وعلى كلّ

مَن هبّ هو لمساعدته، أو أوقع به الأذى؛ وعلى كلّ النّساء اللّواتي تعرّف عليهنّ، أو كان سيتعرّف عليهنّ. جميع هؤلاء وأولئك، الذين تعرّف عليهم في ذات اللّحظة، سواء منهم الأموات أو الأحياء، لم يُصِبْه من رؤيتهم الخوفُ ولا الدّهشة، حين اجتمعوا حوله على ذلك النّحو، ورفعوا عيونهم نحوه؛ وإنّما أدرك بأنّهم ما اجتمعوا جميعا هنا، إلا ليرافقوه في حياته الجديدة تلك، وحسب: حياته الوحيدة والحقيقيّة التي كشف أخيراً عن سرّها، وهو فوق قمّة بريكورنيتسا البيضاء. فبدت له السّماء، وهي على مسافة قريبة جدّا منه، وكأنّها فُسْطاطُ سيركٍ توهّج بمزيج من الألوان المبرْقَشة، التي يتداخل فيها البنفسجيّ بالأحمر والأصفر والفضّي؛ وهي الألوان التي تستطيع عينه الثّاقبة، وهي تركّز على دوّامتها، أن تذهبَ حدّ التّعرُف على ألوان أخرى، لا تدركها العينُ المجرّدة إدراكاً مباشراً، بما في ذلك لونُ الأوكسجين والأزوت والهيلْيوم؛ بينما تستطيع أذُنُه اللاّقطة، وقد التحمت بالأرضيّة الملتهبة، أن تُصْغي الى الأرض، وهي تتنفّس من بعيد، على نحو مخنوقٍ ومُلْغز، وكأنّها امرأةٌ حامل. وبذا، اقتنع في النّهاية، بأنه نجح في تشَرُّب كلّ الجمال المُتَخفّي في العالم، دفعةً واحدة، وهو جمالٌ ظلّ يطْلُبه، ويرغب فيه طويلاً؛ فاسْتهوته على إثر ذلك، الرّغبة العارمة في لمس كلّ ما يراه، ويسمعه، ويحسّ به، وحتّى لَعْقِه بلسانه أيضا. إلّا أنّه تمالك نفسه، وقد أدرك بأنّ اللّوحة المُؤطّرة، التي تنبض فيها، بهارمونية لا تُصدّق، الصورةُ الكابوسيّة لكلّ الموجودات، قد تنتشر مثل ذرّات الغبار، إنْ لم تَصُنها نظْرتُه المغناطيسيّة المُنَوَّمِة، وتُبقي عليها من خلال ذلك الإلْتحام الغريب. لهذا، لم يجرؤ على إبعاد عينيه قَيْد أُنْملة، عمّا يراه، ولا القيام بأدنى حركة. ومع ذلك، رغب بسبب كلّ ما حصل له، وكلّ ما زال ينتظره، رغبةً جنونيّة في الغِناء، حتّى يكشف للعالم قاطبة، عن درجة السّعادة التي أدركته، نتيجةَ نجاحه في الهرب أخيراً، من قدره.

فجأةً، سمعْنا رجعَ صدًى لصُياح رهيب، فبقينا جامدين للحظة، لا نقوى على الإتيان بأيّة حركة، بعد أنْ صعقتْنا الخشْية والمباغتة. بدا لنا الأمر في البداية، على أنّه صُياح حيوان يُحتَضَر، أو صدًى غير آدميّ آتياً من زمن آخر، وربّما من عالم بعيد. وكان اعتقادنا سيتوقّف ربّما، عند هذا الحدّ بالضّبط، لو لم تكن ثمّة في ذلك الصّوت المُرتجّ بشكل غير حقيقيّ، ارتجاجَ الغُبار الضّوئي الدّقيق، نبراتُ ألمٍ ويأسٍ لا يمكنها أنْ تصدرَ إلّا عن إنسان. وبذا، تحقّقنا من أنّ ذلك الصّياحَ، هو صياح بشريّ حقيقيّ، وأنّ الشّخص الذي ظللنا نبحث عنه، موجودٌ بحقّ وحقيقة. فهل لهذا السّبب، أم لأنّا كنّا مصدومين من قبل، شعرنا بالإهانة، وربّما بالفزع حتّى، لمّا انتهينا في ذهولٍ، الى اكتشاف ما اكتشفناه بدخيلتنا؟! تبقى الإشارة الى أنّ جميع أفراد الحشد، الذي صاحبنا من قبل، حلّوا عنّا، وتفرّقوا. فشعرنا، إياكوف وأنا، بضآلتنا وبغربتنا عن نفسيْنا، مثلما أحسَسْنا بفراغ في القلب، وكأنّا فقدنا للأبد، شيئا ثمينا لا يُقدّر بثمن، كنّا نمتلكه. وإذا بالصُّياح يخبو، ثمّ ينطفئ، بكيفية لم تكن متوقّعة. لكنْ، تبقّى أمامنا ما يكفي من الوقت، لنحدّد الموقع الذي انطلق منه، بدقّة: كان المكان هو الصّخْرة الوحيدة، التي ترتفع على عُلُوٍ لا يتجاوز بضْعَة أمتار، وحسب. وبقدر ما كنّا نقترب منها، بقدر ما يتغيّر شكْلُها، وكأنّها سحابةٌ منفوشة: فهي تارةً تُشْبه الفُطْر، وتارةً تجعلنا نتصوّرها على شكل ضِرْس حِصان مَنْخور، ربّما لأنّ قمّتَها عريضةٌ ومُسَطّحة، بينما قاعدتها تصبح مجردَ عمودٍ نحيف، غُرس في الأرض فجأة، فاتّخذ بذلك شكلَ ساقيةٍ نحيلة، لها شكلٌ عموديّ.

كان يغنّي، ويندهش في ذات الآن، من عدم التعرّف على صوته. فأدرك حينها، في ذعرٍ وخوفٍ شديديْن، بأنّ فمَه - فمه المليء بالتّراب! - تَنْفلت من

خلاله، صرخَةُ جدّه الأعلى يوكسيم، كئيبة ومشبعة بالحزن؛ ذلك الجدّ الذي صار الموت الآن، يطعنه طعناً جدّياً ونهائيّاً، عبر العنصر الأخير من سلالته، الذي لم يعد له من خلاص آخر. «لكنّي نجَوْتُ، ردّد في نفسه. نجحتُ في الفرار!». أراد القيام من موضعه، فندّتْ عنه حركة ضعيفة. حينها، اختفت الصّورةُ الرّائعة التي كان يتأمّل فيها، وغدتْ مجرد غبار؛ فارتفع بغتة، كلّ ما كان في الأسفل، بينما السّماءُ ارتجّتْ، وتأرجحَتْ في بؤبؤ عينيه الذّاهلتين، عينيه اللّتين انْفتَحَتا على آخرهما.

بالفعل، عثرنا عليه فوق تلك الصّخرة. كان يضطجع فوق العُشْب، وهو ممدّد على ظهره، وعارٍ تماما. خارقاً وغير مألوف، كان ذلك المشهد! اعتقدنا أول الأمر بأنّ هذا الرّجل الضّخم، ذا المنكبين العريضيْن، الذي ظلّ - في جموده وسكونه - جميلاً، جمالَ التّماثيل المنحوتة من الصّخر، لم يكن سوى نائم. إلّا أنّا لاحظنا في ما بعد، بأنّ عينيْه الزرقاويْن اللّتين كانتا مفتوحتَيْن على آخرهما، لم تأبها بحضورنا، ولا بلمعان الشّمس الآيلة للغروب؛ وبأنّ خيْطاً من الدّم الطّري والقاتم كان يتسرّب من فمه. ومع ذلك، فإنّ إياكوف انحنى بكيفيّة مرتجلة على صدر الرّجل المليء بالشّعَر، ووضع أذنه جهة القلب. وحين اعتدل، فهمتُ بأنّ كلّ شيء انتهى. بقينا هناك واقفين، ونحن نغرق في الصّمت والعجز، ولا نقوى على القيام بأيّ شيء. لقد تمنّع علينا الآن، بالفعل. فهل توقّع ذلك؟ أأصْدر ذلك الصّياح ليقودنا إليه، حتّى يوضّح لنا، بما لا يترك أيّ لُبْس أو إبهام، بأنّه أفْلَت من فضولنا، وغيظنا، وحنقنا؟ أيكون شعر بالفرح العارم ربّما، لكون الموت هو الذي صرعه، وليس نحن؟ وهل يبتسم هو الآن، لهذا؟ كنّا منجذبيْن أكثر، ونحن ننظر إليه، الى هذه الفكرة بالذّات، لأنّا لم نعثر - ونحن نستقري صفحةَ وجهه

الطّويل، الذي ارتسمت عليه الخدوش، وتلطّخ بالطين، فبقي جميلاً الى أبعد حدّ، مع ذلك - على أيّة أمارةٍ، تشير الى أنّه شعر بالمغص، ولا على أيّ أثر يدلّ على أنّه عانى من الألم؛ لاشيء آخر شدّ انتباهنا إليه، غير تلك الابتسامة الرّاقية والمتفوقة، التي أحزنتنا، لأنّها ذكّرتنا بكيفية انتقاميّة ليس فيها رأفة ولا شفقة، بأنّ هذا الرجل وجميع ما يتّصل به، من قريب أو بعيد، سيبقى بالنّسبة إلينا والى الأبد، مجرّد سرّ مبهم وغامض: اسمه، مهنته، مكان مجيئه، مكان ذهابه، السّبب الذي دفع به الى الرّكض، بتلك الكيفية وكأنّه مخبول، وسبب موته. وقد وجّهنا حقدنا حتّى الى موته، الذي كان أشدّ الخُدَع مُراءاة. وإلّا، لماذا اضْطجع على هذه الصّخرة، وهو عارٍ تماما؟! أين اختفتْ بذلتُه السّوداء؟ أين قميصُه وسرواله وأوراقه الثّبوتية؟ ولماذا قام بإخفاء كلّ ذلك، إنْ لم يكن لأجل تنحية أيّ أثر، يدلّ عليه، وإفناء كلّ ذكرى من ذكرياته، كي يحتفظ حتّى في موته، بالمسافة التي ظلّت تفصله عنّا، وعن جميع أولئك الذي سيتمكّنون بالصّدفة، من العثور عليه فوق هذه الصّخرة، قبل أنْ تَنْقُر الطّيور عينيه، وتُفَتّت الوحوش عظامه فوق الجبل؟ ينبغي الإعتراف بأنّه نجح نجاحا حقيقيّا في مسعاه، وهذا رغم كافّة الجهود، التي بذلناها، لأنّا لم نتمكّن من العثور على أيّ أثر من آثار ماضيه. فكَكْنا كلتا يديه، اللّتين كانتا مضمومتَيْن على شكل قبضة، لكنّا لم نقبض سوى على الرّيح! كان فمه مليئا بالتّراب، وبما لسْتُ أدري أيّ عشب كريه الرّائحة. إلاّ أنّ هذا بقي على أيّة حال، بلا أهمية، إذ صار ينتمي الآن، الى الأرض: امتزجتْ خُصُلات شعره الطّويل بالعُشب، والتصقَ غُبار الطّلع الذي نقلته الرّيح من قلب الزّهور، ببطنه وفخذيه وعضوه التّناسلي، فعدّل ذلك من لون بشرته. وكانت قدماه جريحتين ودامیتين، وذراعاه الطّويلتان والمُنْثنيتان تحت رأسه، شبيهتيْن بعصاتَيْن مكسورتين. وانبرى النّمل يغور في أذنيه. أكُنّا سنشعُرُ إزاء معاناته، بنوعٍ من التّقدير الخاصّ، أم على الأقلّ بالرأفة عليه ربّما، لأنّه مات فوق هذه

الصّخرة، بعيدا عن ذويه، حيث لن يعثر عليه أحدٌ، على الإطلاق؛ هذا إذا لم يكن ثمّة في ابتسامته، ما يعبّر بنوع من الغرابة، عن الإشفاق الموجّه إلينا، ربّما؟ ذلك ما بدا لي أنا، على الأقلّ. وحتى أتأكّد من هذا الإنطباع، التفتُّ صوب إياكوف، فوجدته يبكي في صمت، وينظر إليّ من خلال غلالة الدّمع، وقد صار على هيئة من لا يعرفني. كان اللّيل قد حلّ منذ وقت، فاختفى المنظر الطبيعي كلّه فجأة، ومعه اختفى العالم وسط ديامِس العتمة، باستثناء تلك الصّخرة المعزولة، حيث أخذنا نحن الاثنين، نغوص أكثر في لُجّة صمتٍ ثقيلٍ ومؤلم ، وقد باعد بيننا ذلك الرّجل المُلغز والعاريّ، الذي بقي يضحك حتّى في مماته.

انتهت

موت السّيد كولوجا
قصة طويلة

مَضَتْ بِضْعَةُ أيّام ثقيلةً ومريبةً، ولا شيءَ آخرَ عُرِف عنه دائما، عدا اسْمه الشّاذ والغريب مرسوماً، بخطٍّ سريع ومائل، في سجلّ الفندق الذي تراكم فوقه الغبار: ***السّيد كولوجا***. وسدًى، انتهى جُهْدُ المُتَفرّغين أكثر، من بين مَن باتوا يراقبون حركاتِ ذهابه وإيابه، على أملِ أنْ تخونَ حركةٌ ما طائشةٌ منه، بعضَ نواياه. فبدا هذا الشّخص المجهول، بقامته الطّويلة النّحيفة، وبذلته السّحْماء، وقُبّعته السّوداء التي غُرِس رأسه فيها حدّ العينيْن، للإحْتماء من أشعّة الشّمس، أو ربّما من النّظرات؛ مستمتعاً بكيفية ماكرة بلذة التّمَنُّع عن طرح أيّ سؤال، ومتعة الإنقطاع التامّ عن بعث أيّة رسالة، أو استعمال الهاتف. وإنّما ظلّ يسير في الأزقّة والطّرق، بشكل يتعذّر الإمساك به، أو توقّعه، وكأنّه شبحٌ ينْفرد بنفسه. «إنّه شخصٌ ذو مال، قال أشدّ السّاكنة فقرا... ويمكنه أن يكون مقامرا!». «لا، للأسف! ردّ الضّالعون في الإحتيّال والنّصب. لو كان كذلك، لتركناه بلا سروال، منذ اليوم الأول!». ولم يكن - يقينا - بجاسوس، لأنّه غالبا ما يكلّم نفسه، ويفرّ من رفقة الغير، الى حدّ صار معه موضوعَ كراهية، لدى البعض. وانْتهى أحدهم ذات يوم، بالقول: «وماذا لو لم يأت إلّا ليستمته بالرّاحة والإستجمام، فقط؟!». لكن، كيف لعقل سَويّ أنْ يقبل بأنّ شخصا مهمّا مثله، اختار هذه البلدة المتواضعة بالذات، من بين عدّة مواقع منذورة للعُطَل، كي يرتاح فيها، ويستجم؟

- تُرى، ماذا فعلناه له حتّى يُضْنينا، ويجعلنا ننتظر عبثا؟! ألن نعرف من أين جاء، وماذا يعتزم فعله؟! ظلّ الفضوليّون يردّدون، وهم يتأوّهون.

- ألم تلاحظوا، بحقّ السّماء، أنّه يحمل علامات النّحس على سُحْنة وجهه؟ صرختْ إحدى النّساء.

وكان كثيرو التّلَهُف عادةً ما يهرعون نحو الجسر بسرعة، حيث السيد كولوجا يقف في أوقات الظّهيرة، مثل غراب الشّؤم، ويرنو باستغراق من فوق الحاجز الحَجريّ الى مياه النّهر البُنِّيّة، التي تَنْساب متدفّقة في اتّجاه الشّمال. وحين لم يجدوه هناك، ذات ظهيرة، ذهب ذهنهم الى الإعتقاد بأنّه اختفى بطريقة ملغزة، حاملاً معه رُزْمة الأسرار.

- هذا ما نستحقّه حقّاً؛ عساه يجعلنا نتعلّم التّذبذب والتّردد أكثر! علّق أحدهم قائلا، وكان دائم المواربة.

وفجأةً، ظهر السيد كولوجا بارزاً للعِيان في تلك الأثناء، من حيث لا يعلمُ أحدٌ، ثمّ دلف الى الحان. شقّ لنفسه الطّريق بين الرّواد، باحثا بنظراتٍ مُغيّبة عن منضدة شاغرة، فلاحظ الجميعُ بأنّه بدا فعلاً، بمظهر المرتبك. توقّف للحظة، وأخذ العديد منهم في تقريب الكراسي من بعضها، معتقدين أنّه سيلتحق بهم. لكنّه انحنى في اتجاه النّادل، وطلب بصوت خفيض، قطعتَيْ لحم عِجْل مقليّ وخبزاً، ثمّ انزوى بنفسه في رُكن شديد العتمة. ولمّا أدار ظهره لِلرّواد، جلس منفصلا عن الجميع، دون انتزاع القُبّعة عن رأسه، وكأنّه لم يدخل الى الحان، إلّا لستريح بعض الوقت.

- بهذا يكون قد بالغ أكثر! فهو لا يكاد يعبأ بوجودنا، حتّى! قال أحدُ أكثر هؤلاء تأثّراً وانْفعالاً.

وربّما كانت تلك، هي الفرصة الأخيرة الممكن إتاحتها، لوضع نهاية

للاحتمالات، والسّعي الى الوقوف على جلية الأمر. لكنّ لا أحد تجرّأ على توجيه الكلام إليه، وإنّما اكتفى الجميع بمجرد النّظر الى ظهره، الضّيق والمُحْدودب، وحسب.

وانحنى هو أكثر، لمّا شعر بالنّظرات ترشق قفاه، وكأنها كانت سِهاماً مُثلّمة، وشرع في تناول الطّعام، بكيفية سريعة. كان يرغب بالفعل، في الالتفات نحوهم، والتّعرف عليهم، وربط علاقة ما معهم، لكنّه خشي من سخريتهم وتهكّمهم. فقد كانت النّاس غالبا ما تضحك منه، حتّى حين يمنحها أفضلَ ما يشي عنده، بحُسْن النّية. وظلّت النّساء بالتّأكيد، أكثر هؤلاء وقاحة وصلافة؛ إذ كنّ في ازدرائهنّ للمحاولات التي يُقْدم عليها لربط علاقة ما معهُنّ، لا يُفَوّتْن الفرصةَ عليهنّ أبدا، ليُبَيّنّ له بأنّه يثير في النّفس، مشاعر الشّفقة والرّأفة. وما كان هو يعتقد، بأنّه أقلّ شأنا من الآخرين، لكنّه انْتهى مع طول المدّة، بالقبول بمصيره الحزين، فصار ما يَنْفك يعتزلُ الجميعَ على نحو أكبر، ويترقّب أنْ تواتيه الظّروف، التي يمكن لها أنْ تزرع في صحراء حياته القاحلة، بعضَ الجمال؛ وهو يأمل سرّاً، أنْ تُسْعفه الحياة حقّاً، فيتقاطعَ مع حسناء بجمالٍ أخّاذ، أو أنْ تتمسّكَ بأهذابه، بالأحرى، إحدى الأرامل الثّريات في يوم ما، أو يفوزَ بمبلغ كبير في اليانصيب، على الأقلّ.

ظلّ في تلك الأثناء، مكتفياً بمجرد الأكل في صمتٍ مُطْبق، وقد شعر في قراره ببعض الزّهو، لأنّه حرّك في نفوس هؤلاء، فضولا عامّا؛ غير أنّه بقي حذرا بشكل كبير، من إمكانية ربط أيّ اتصال معهم، حتّى ولو ظلّ سعالُهم الخفيف والمحتشم، يكسر من بعيد، غلالة الصّمت الثّقيل التي طوّقت الفضاء.

- قل لنا ماذا تفعل طول الوقت، فوق الجسر، أيّها السّيد؟ سأل أحدهم بشكل فجائيّ، وبصوت غير واثق بما يكفي.

- إنّني أعْمَد، لكوني لا أتقن السّباحة، الى مجرد قذف النّهر بالبُصاق، بدافع التحدّي!

- أنتَ تتحدّانا نحن، وليس النّهر!

توقّف السيد كولوجا عن الأكل، فشرعت أصابعه الطّويلة والنّحيفة في الارتعاش، فوق غطاء المائدة، الذي تبرقَع ببُقَع الطّعام. إلاّ أنّه امتنع عن الكلام، بفطنة منه واحتراس.

- ثمّ ماذا تفعل أصلاً، في بلدتنا؟

- إنّ لك فيها بالتأكيد، مهمّة ما.

- أو ربّما تتهرّب من أحدهم!

ندّتْ عنه حركةٌ، توحي بأنّه مقبل على النّهوض، لكنّه عدل عن ذلك، واكتفى بإضرام النّار في سيجارة. التفت الى الوراء، وطفق ينظر إليهم، في اندهاش.

- فسّرْ لنا الأمر، إذن. فأنت، في كلّ الأحوال، لم تحلّ هنا، عن طريق الخطأ!

حينها، تساءل السّيد كولوجا حول ما إذا أتى الى البلدة بالصّدفة، فعلاً، أم أنّ شيئا ما بدخيلته، منع عنه على نحو ملغز، الوصولَ الى شاطئ البحر. أضف الى ذلك، أنّ هذا لم يعد له أهمية، الآن. كلّ ما كان يدريه، أنّه نزل من القطار، قبل ثلاثة أيام خلتْ، وانتظر وصول قطار آخر، ليصل به الى المُصْطاف الشّاطئي؛ فمكث واقفا، على رصيف يخلو تماما من الرّكاب، اللّهم من جُفاء معدنيّ استثارتِ الشّمسُ حُميّاه، الى أن راودته فكرةُ الإستفادة من الوقت الضّائع في الانتظار، بزيارة هذه البلدة. وبينما هو يتسكّع، دون هدف محدّد، بين الأزقّة والجادّات الضّيقة التي تحيط بها أشجار هرمة، لم يعد يشعر

فجأةً، برغبة في مواصلة طريقه ناحية البحر، الذي لم يره من قبل، أبدا. ودون تفكير كبير في الأمر، حمل حقيبتيْه الى إحدى الغرف بفندق قريب، كانت نافذتها تطلّ على النّهر. ثمّ اكتشف في البلدة، حاناتٍ صغيرةً تُقدّم الطّعام بأثمنة جدّ زهيدة، فسعد كثيرا لفكرة قضاء عطلته السّنويّة القصيرة، بكيفية ليست فقط غير مكلّفة مادّياً، وإنّما ستكون - بالاستناد الى الأهمية، التي استثارتها فيه هذه البلدة - عطلة أكثر إثارة وإغراء، من تلك التي كان بإمكانه أنْ يقضيها على شاطئ ذلك البحر الشّهير، الذي ودّ سابقاً، الوصولَ إليه.

- وقع اختياري على بلدتكم، قال في ما بعد.

- ولماذا اخترتها؟ سألوه كلّهم بلسان واحد، وهم يلهثون من فرط الفضول.

- لأرتاح.

- غير صحيح، أيها السّيد. لا أحد جُنّ بما يكفي، ليقضي وقته هنا، دون أن يكون مُكرها على ذلك.

- حسناً! قال، وهو يسعل بشكل عصبيّ. نزلتُ هنا من القطار، عن طريق الخطأ.

- أيّ قطار؟ ما الذي تزعمه، هنا؟ ثمّ لماذا مكثت هنا لثلاثة أيام، لو افترضنا أنّك تواجدت به، عن طريق الخطأ؟

- لست أدري. ربّما أصابتني صعقة حبّ مفاجئة من بلدتكم، فوقعت في هواها!

- أنتَ بحقّ، تسخر منّا! الجميعُ هنا، يعلم علم اليقين بأنّ لا شيء يثير الأفئدة والألباب، هنا.

نكّس السّيد كولوجا رأسه. كان يبحث عن جواب كفيل بإقناعهم، وهو يصيخ السّمع الى وشيش المطر الخفيف، الذي يتهاطل منذ لحظات من السّماء، بعدما ارتفعت درجة حرارتها.

- اضْطُررتُ الى البقاء، هنا، لأنّي مرضت.

- وبدل المكوث في غرفتك، لتناول بعض الدّواء والنّقيع، ها أنتَ تلتهم أطباقا دسمة ومتبّلة! أنت لستَ بحاجة الى كلّ هذه السُّعْريات الحراريّة، في عزّ الصّيف!

- الطّعام هنا بأثمنة زهيدة جدّا، وهذا مثير لشهية أيّ كان.

- كفى هراء! إنّ لك أسبابا أخرى: بالفعل تعمدُ الى تقوية جسمك، لأنّك بهذا تتهيّأ للقيام بأمر ما.

- أتهيّأ للذّهاب الى البحر وحسب، قال بصوت حادّ.

- وماذا ستفعله في البحر، وأنت لا تتقن حتّى السّباحة؟!

لاذ بالصمت مجدّدا، فبدا أنّه لم يتوفّق في تبديد شكوكهم، ما جعل الأمور تتأزّم: لاحظ بأنّ الأصوات أخذت في الإرتعاش، والأيدي في رسم حركات عنيفة في الهواء. لذا، قرّر إخلاء المكان، دون انتظار الكثير.

- هيّا، قل لنا للمرّة الأخيرة، سبب اختيارك لبلدتنا.

- وإن امتنعت؟

- سنستنتج في النّهاية، بأنّك تهيّؤ لأمر فيه سوء. لربّما كان في نيتك قتل شخص ما!

- أتعتقدون بأنّ لي رأسَ مجرم، يقوى على قتل شخص آخر؟

- شخص آخر؟! وما الذي يقتله النّاس غير الآخرين، يا سيدي العزيز؟!

فكّ ربطة عنقه، وزرّر طوق قميصه بأصابع مرتجفة، ثمّ زفر بعد ذلك، زفرة حرّى مفعمة بالمرارة، وقال:

- ما هذا الكلام؟! الإنسان الجدير عندي بهذا الوصف، هو من ينبغي أن يكون قادرا فقط، على قتل نفسه.

- وهل لك أنت على أيّة حال، نية الإنتحار؟! همس رجل قصير، بطريقة جعلته يبدو أقصر بكثير ،من قامته الحقّة.

شعر بغتة، وقد رأى الفضولَ يفتك فتكاً بوجوههم، برغبة في مخاتلتهم: إنّهم لن يتركوه في كلّ الأحوال، يُنهي قطعة لحم العجل المقليّ!

- فليكنْ ما تريدونه، إذن. سأقرّ لكم بكلّ شيء: اخترتُ بلدتكم السّاحرة، لأضع فيها نهاية لحياتي!

نهضوا جميعا من أماكنهم واقفين، ثمّ اقتربوا منه، وأحاطوه، وأخذوا يتفرّسون فيه، بنوع من التّقدير المشبع بالغمّ والقلق. وعلى إثر ذلك، شعر هو بالإرتياح، وأضرم النّار في سيجارته بكيفية استعراضيّة، بينما ندّت عن شفتيه ابتسامة ملغزة.

- ربّاه! وما الذي انتابك؟ لماذا وقع اختيارك على هذا؟

- الموت من الشّؤون الكبرى، همس بهيئة مغيّبة.

- أتعرّضْتَ لمأساة كبرى؟

- إذا كان السّبب هو النّساء، فلا تقدم على ما اعتزمت على القيام به، لأنّهنّ بلا قيمة.

- الرّجال عادة ما ينتحرون، إمّا بسبب النّساء أو القمار. قال رجل طاعن في السّن.

- الحياة لعبةُ مراهنة، قال هو مبتسما. إنّما ليس بمقدوركم استيعاب الأمر، لأنّه شأن خاصّ جدّا.

لاذوا بالصّمت، ومكثوا جامدين ذاهلين، وربّما مروّعي الدّواخل، بسبب هذا الأمر الخاصّ جدّا والخطير، الذي ليس بمقدورهم استيعابه.

- هيّا، توقّفوا عن إزعاجه ومضايقته، قال أحد الأعيان. هذا السّيد يدرك بالتّأكيد، ما يريده...

- أنا أدرك ما أريده دائماً، قال السّيد كولوجا. ثمّ أخرج بحركة ميكانيكيّة من يده اليسرى، حافظة النّقود، وأفرغ محتواها فوق الطّاولة، وعدّ ماله بعناية فائقة، ووضع ثمن الخبز ولحم العجل المقليّ، جانبا.

- عفوا، سيّدي... أتريد أنْ تمزح؟! قال النّادل، وهو ينحني أمامه.

- ماذا تقول؟ هل ارتفعت الأثمنة، عمّا هو معتاد؟! قال، وقد امتقع لون وجهه.

- على العكس، يا سيّدي. لن تؤدّي أيّ ثمن، اليوم. يكفي أنّك شرّفتنا كثيرا، أنا وجميع من بالحان.

***

ومنذ هذه اللّحظة بالذّات، اتخذتْ حياة السّيد كولوجا، مسارا لم يكن متوقّعا، ولا منتظرا: أراد أهالي البلدة الصّغيرة، بعد أنْ فاجأهم منه، ما قرّ عليه عزمه، أن يُظْهِروا له الكرم المستحقّ، ويجعلوا ما تبقّى من أيّامه سائغا وممتعا؛ فأشعره مدير الفندق، بأنّ مؤسّسته التي شرّفها كثيرا إيواءه، ستتولّى عنه تحمّلَ نفقة الإقامة كلّها. ومنذ اليوم الموالي، توافد عليه الحلاّقون،

والخيّاطون، والإسكافيّون، والسّاعاتيّون، ومُكْترو السيّارات، ليقدّموا له خدماتهم مجّانا. وأبلغه الأثرياء وأهل المشورة بالبلدة، بأنّ بمستطاعه الإعتماد عليهم، في حال ما إذا شاء، أو اضطرّته الحاجة، كي يتصرّف في ما يملكونه من أموال.

في الأيّام الأولى، تهرّب من كلّ أشكال هذا الكرم المعروض عليه بسخاء، مقتنعا بأنّه وقع ضحية خدعة كبرى. فظلّ يرفض كافّة العروض المقدّمة، ويمتنع عن قبول الهدايا، ويجاهد نفسه بكثير من الرّعونة أيضا، لدفع جميع ما يعرض عليه، مكرّرا على الأسماع بأنّه لا يستحق ذلك إطلاقا، ولا يتمنّى أنْ يلقى أيضا، مثل هذا الفيض من الإهتمام. بل ذهب به الأمر حدّ أنْ راودته فكرة العودة خُفْيَة في اللّيل، من حيث جاء، مع أول قطار يجده بالمحطّة، حتّى ولو سافر به في اتّجاه شاطئ البحر. لكنّه أذعن في النّهاية الى غواية الانتظار، مترقّبا ما قد تُسْفر عنه الأحداث؛ بينما شعور خاصٌّ في نفسه، يحدّثه عن إمكانية حصول شيء مثير، من قبيل الأمور الغامضة التي طالما رغب في وقوعها سرّا، ممّا يجدر بالمرء أن يتحمّل معه، بعضَ المخاطر. لذلك، قرّر المكوث لوقت إضافيّ آخر، في هذه البلدة المأهولة بالمجانين، لكنْ مع إظهار الحذر الشّديد، حيال العروض التي تُقدّم له، لأنّ غايتها - وهذا ما يشعر به، كثيرا - هي استدراجه الى شَرَك، تلتف الأحبولة فيه حول عنقه.

وقد ألفى النّاسُ في تحفّظه وتكتّمه، ما يشي بأنّه كائنٌ استثنائيٌّ متعفّف، ينظر بازدراء الى المتع الدّنيويّة، بعد أنْ فضّل الموت على الحياة؛ فوقع منهم التّنافس على إعلان تقديرهم له، فعملوا ما بوسعهم، وبكافّة الوسائل والسّبل، للإقتراب منه، والفوز بصداقته: صاروا يدعونه الى تناول طعام العشاء، وحضور حفلاتهم العائليّة، ومناسبات أعياد الميلاد، ويتوسّلون إليه ليصير عُرّاب صغارهم، ولم ينسوا التّضرع إليه، ليشرح لهم معنى ذلك «الأمر الخطير»، الذي قال إنّه ليس بمقدورهم استيعابه.

وظلّ السّيد كولوجا يتوارى عنهم بكيفية مفعمة بالإرتباك والتّصنع، ويقول مندهشا كلّما وقع عليه الضّغط، والإبتسامة المُكْرَهة لا تفارق شفتيه:

ـ أنا لا أفهمكم: جميع من يراكم على هذه الحال، من الحفاوة والكرم، يمكن أن يتبادر الى ذهنه بأنّكم تغبطونني!

ـ بالتّأكيد، نحن نغبطك! كانوا يهمسون له، في اندهاش. فنحن لا نقوى على التجرّؤ مطلقاً، على ما قرّرت الإقدام عليه، لأنّا نخاف من كلّ شيء، خاصّة الموت!

– وإذن، اتركوني وشأني. يكرّر على مسمعهم.

– إنْ تركناك، لن يُعتبر هذا تصرّفا نبيلا منّا، قال أحدهم ذات يوم. إنّنا لن نقوى على البقاء غير مكترثين بشأنك، بعد الخدمة الكبرى التي ستقدّمها لنا.

– أنا؟ قال باحتراس.

– أنتَ، طبعا! لقد أعدتَ إلينا الأمل، وبيّنْتَ لنا بالدّليل المادّي الملموس، بأنّ من الممكن أن يحصل في بلدتنا، نحن أيضا، شيء استثنائيّ، شيء رهيب ومثير!

فشرع بعد ذلك، في اعتبارهم جادّين، لأنّهم حاولوا حقّا، بما لا يُعدّ، ولا يُحصى من أشكال الكياسة والتّحَوُّط، استدراجه ليخبرهم باليوم والسّاعة بالذّات، اللّذين يعتزم الإنْتحار أثناءهما. ورغبوا على الأخصّ، في معرفة ما إذا كان ينوي القيام بذلك علانية، لأنّ هذا سيسرّهم منه غاية السّرور، وسيكون بمستطاعهم حينها، دعوةَ التّلفزيون لتصوير الحدث برمّته؛ أو سيقدم على فعلته في الخفاء، دون أيّ شهود. ويكتفي هو، نكاية فيهم، بمجرد تحريك الرّأس، وتركهم يعْمهون في الغموض المطبق. وأخذته في نفس الآن، رعدة من جراء الإنتشاء، وهو يرى كيف سيطر عليهم، وكيف

طوّعهم، فشعر على نحو غامض، بأنّ تحوّلا ما سيسمح له قريبا، بالتّلاعب بهم والإسْتخفاف من عقولهم.

ولم يكن يخطئ. إذ إنّ إحدى أجمل نساء البلدة، دلفتْ الى غرفته على حين غرّة، صبيحة يوم من أيام شتنبر، بينما كان الضّوء يوزّع رشاشَه على الأسطح، وعلى أكاليلِ الزّيْزفون صفراء اللّون؛ فروتْ له، والدّمعُ يغمرها، كيف أنّها رأته في حلمَ اللّيلة الفارطة، يغرز سكينا في قلبه. وعلى إثر ذلك، استفاقتْ من نومها مرتجفةً، وهي تشعر بالإحباط. وبهذا، تعرّفتْ فيه إلى الرّجل الذي ظلّت تنتظره طول عمرها؛ ذلك الرّجل الذي من شأنه أن يلقّنها معنى الحبّ، ويذيقها من ثماره. ترنّح السّيد كولوجا على إثر هذا الكلام، وأدرك بغتة بفعل الذّعر، الذي انتابه، بأنّ المرء لا يشعر بمثل هذا الإحساس، إلا حين يرى الأشياء، التي تكون أجمل؛ فأحسّ بأنّ حُلْمه في الطّريق الى التّحقق. ثمّ أجابها بصوت مختنق:

- سيّدتي. من أجلك، أنا مستعدّ أنْ أذهب حدّ العدول عن فكرتي، والبقاء على قيد الحياة!

- أجل، أنا أعرف ذلك. لكنّ هذا سيكون تضحيّة غير ذات جدوى. إنّ ما يكدّر صفوي، هو إقدامك التّلقائي قريبا، على ملاقاة الموت. وإنّي سأفتقدك، الى الأبد. قالت متأوّهةً، ثمّ ارتمت في أحضانه.

***

وهكذا بدأتْ حياةُ السّيد كولوجا الحقيقيّة: فبعدما لم يعد يخشى خديعة الأهالي، ولا دسيسَتهم، انغمس في كافّة المتع، التي وفّرتها له هذه البلدة المضيافة، بوفرة. لم يعد يرفض أيّ شيء، وذهب به الأمر حدّ المطالبة، تحت ذريعة القبض على الفرصة المواتيّة، على نحو أفضل، بأنْ تُعدَّ له الظّروف

الإعداد الأحسن، من أجل التّفكير في ما سيقدم عليه. واستجابت النّاس له، وقامتْ بكلّ شيء، لإرضائه: قدّمتْ له أفضل الأطعمة، وأغلى الأنبذة، وأهدتْه أجمل الملابس، وأكثرها أناقة. أما جميلات المدينة، فبعدما اقتنعْنَ من جهتهنّ، بأنّ الذي دفعه الى الموت، لن يكون سوى حزن غائرٍ، نجم عن تجربةِ حبٍّ فاشلةٍ، حتّى ولو أنّه حكى ما حكاه، بصيغة تتهرّبُ من الحقيقة؛ فإنهنّ حاولن بذل أقصى ما في وُسْعِهنّ من جهد، خلال أوقات الصّباح، حين يكون الأزواج في المكاتب، من أجل مواساته بطريقتهنّ الخاصّة، وردّ الإعتبار - في عينيه - للنّساء. وحتّى لا يضطررن بعدها الى التّخَفي عن الأزواج، ذهبْنَ بعد ذلك حدّ ترويج الإشاعة، التي تقول بأنّ السّيد كولوجا عرّاف، يقرأ الغيب في خطوط الكفّ، وثُفْل القهوة.

وذلك ما يصنعه، بحسب الإشاعة التي ذاعت في البلدة، بكيفية متقنةٍ وواعية أيضا؛ إذ كان يمكث مع كلّ امرأة من تلك النسوة لفترة طويلة، مغلقا عليه في الغرفة، يطالع مستقبلها الى أدنى تفصيله، دون أن يشتكي أبدا، من أنّ هناك من يزعجه، ويشغل وقته الذي يُفْترض تخصيصه للتّأمل والتّفكير. وهذا ما يقدّم الدّليل مرّة أخرى، بأنّه لم يكن مثل الآخرين.

وظلّ الرّجال يتردّدون عليه كذلك، لغايات أخرى غير قراءة الطّالع، بالطّبع: يطلبون منه النّصح والمشورة، ويرفعون إليه الشّكاوى والتّظلُمات، ويكشفون له عن الأسرار. وبذا، أقرّ له رجل يتميّز بوجه له ملامح بريئة، ذات يوم ممطر وغائم، بأنّه تعمّد بشكل ما قتل حيوان وبشر كثيرين. وسأله إنْ كان ذلك سيُغرق روحه في بحر المعاصي.

- قتل الحيوان معصية. قال السّيد كولوجا، جازما. لكنّ قتل الإنسان لا يعدّ جريرة في ذاته، لأنّ ما أقدمتَ ليس بحقّ، سوى تخليص هؤلاء من أحمال العيش، ومعاناة الحياة.

- الأمر كذلك إذن، إنْ رأيته على هذا النّحو، ردّ الرجل ذو الوجه البريء.

- لنعتبر ذلك كذلك، قال السّيد كولوجا الشّهم، ووقف معلنا انتهاء المقابلة.

***

صار يدرك كيف يبدو حازما، كما رأينا ذلك، إذ بدأ يتهيّأ له منذ حين، بأنّه شخصية مهمّة. فشرع يتعامل مع كلّ ما يحدث له، بهدوء وعزّة نفس، وكأنه يُقبِل على حقّ من حقوقه المستحقّة. ولم يعد يفكّر إطلاقا، في استعادة مسار حياته القديم؛ تلك الحياة المملّة والمضجرة، التي قضاها بين مكتب مغبرّ، وغرفة أعزب صغيرة وفارغة دوما.

ـ ستبقى هنا، بشكل دائم. قال في قراره. ففي هذه البلدة، حدث لك ما كان ينبغي أن يحدث، منذ زمن ونيّف!

وبدت على مُحيّاه مُسْحَة ضوء غريبة، حوالي نهاية فصل الخريف، فرأى الكثيرون بأنّها سِمَة الموت، التي أضاءت في عينيه، بدنو أجله على نحو كبير للغاية؛ إلاّ أنّ الآخرين، بميلهم الى الشكّ والإرتياب، ونزوعهم الدّائم الى الافتراء، أشاعوا بأنّ السّيد كولوجا قد وقع في شراك الحبّ، فجأة. طبعاً، لم يتجرّأ أيُّ أحد، مهما كان موقعه الاجتماعي، على أن يستفسره، ما دام أنّ جميع النّاس قد اقتنعوا، بأنّه ظلّ يزدري ازدراء كبيرا، كلّ أشكال الفضول البشريّ: فحياته الماضيّة لم يُعرَف منها أيّ شيء بالكلّ، اللّهم ذلك اليوم الذي ظهر فيه لأول مرّة، في البلدة، نحيفا وهزيلا وسط بذلته السّوداء. فلم يتبق أمام الكلّ سوى التكهّن بمجموعة من التّخمينات والظّنون، وانتظار ما قد تسفر عنه الأيّام.

- سينتحر خلال هذه الأيام. هتف أحدهم، يصيح. فانبرى الرّجال كلّهم، خاصّة كبار السنّ، يتناقشون حول الطّريقة التي سيتمّ بها ذلك: أفي العلن أم في السّر، بالنّهار أم باللّيل، بطلقة من مسدس أم بسكّين!

وفتح مقامرٌ مسعورٌ بابَ المراهنة، فتقاطر عليه جميع من كان يؤمن بضربة الحظّ، منتزعين لأنفسهم بأثمنة خياليّة، بعض أوراق اليانصيب المطبوعة، التي تحمل رسما غير متقن، للسّيد كولوجا؛ مثلما تحمل أيضا، اليومَ والسّاعة اللّذين يُفترض أن يقع فيهما موته. وقد صَلّتِ المدينةُ كلّها تقريبا، وأخذت النّاس تنتظر بقلقٍ وانفعالٍ حلول النّهاية، لأنّ الجائزة الوحيدة المتراهن عليها، كانت مغريّة: قضاء الفائز شهر عطلة كاملاً، على شاطئ ذلك البحر الشّهير، الذي عدل السيّد كولوجا عن الذّهاب إليه!

النّساء الجميلات وحدهنّ، من امتنع عن المراهنة: كنّ يُصرّحن قائلاتٍ، وابتسامةُ المُلغزة ترتسم على شفاههنّ، وكأنّهن صرن عرّافات: لن ينتحر. ليس الآن! وكنّ محقّات. إذ خطرت بباله، إبّان تلك الحقبة بالذّات، فكرةٌ مفادها أنّ على كلّ هذا، ألّا يستمر كلّية، وإلاّ أوشك الأمر على الانتهاء نهايةً سيئة. لذلك، وعوض الذّهاب الى السّرير في أوقات القيلولة، بعد ملء البطن بطعام الغداء الوفير، خلال فترات الظّهيرة التي غدت تتناقص شيئا فشيئا، ظلّ السّيد كولوجا يمكث في النّافذة، الى أن يهبط اللّيل، وهو ينظر في ما وراء مياه النّهر غير الصّافية، مركّزا عينيه على جماعة من الغربان الجائعة، التي كانت تحلّق بشكل دائريّ، فوق أعواد القصب. لكنّ تخوّفه سرعان ما طردته فكرةٌ أخرى، كانت أجمل بكثير، حدّ أنّها غمرته بالحسرة واللّاطمأنينة؛ وهي التي يستفاد منها أنه منذور ربّما، الى القيام بحدث عظيم، ظلّت الصّدفة وحدها تحجُبُه عنه، الى الآن.

- لو لم أهرب من الجنديّة، أثناء الحرب مثلا، لصرت ربّما اليوم، بطلا أو جنرالا!

وفي خضم هذه الوضع النّفسي بالذّات، فاجأه مدير الفندق ذات ظهيرة. وحين سمع السّيد كولوجا، سعلةً مهموسة وراء ظهره، التفتَ الى الخلف، فحدج ذلك المُلْحِف المزعج بنظرة شزراء، وعاد يتأمّل الأفق أمامه، حيث الغربان تحلّق، بلا كلل أو ملل.

- أستسمحك على هذا الإزعاج. لكنّي اعتقدتُ، لمّا رأيت الباب مفتوحا، بأنّك...

- أتعتقد بأنّ ليس لي، في هذا الفندق الصّغير والبئيس، ما يكفي من المشاغل التي تدعو الى التّفكير؟!

- أما تزال تفكّر في المسألة؟

- بالطّبع. قال مغمغما بنبرةِ احتداد. ثمّ قلْ لهؤلاء المتراهنين، بأنّهم جميعا خاسرون. فلا أحد يستطيع أن يقرّر ميقات موتي، ولا حتى توقّعه. سيحين أوان ذلك بمشيئتي أنا، وبإلهام خاصّ منّي.

ومضت الأيام، أقصر وأكمد، ثمّ أقصر وأكمد. ريّاحٌ تعصف، وأمطارٌ تهمي، وثلوجٌ تتساقط، فوق البلدة الصّغيرة: كانت أشجار الحور العاريّة والمتجمّدة، ترتجف على حافة النّهر. فارتكن سكان البلدة الى الأغطية في البيوت، ولم يعد يخرج منهم المرءُ، إلّا للضّرورة القصوى. لكنّ السّيد كولوجا بقي يخرج كلّ يوم وحده، للتنزّه في الشّارع الكبير من البلدة؛ وبهذا، كشف للعيان مرّة أخرى، بأنّه ليس كالآخرين. وعند الجسر، ظلّ يمكثُ مستندا بمرفقيه الى الحاجز الحجريّ، وهو ينظر الى النّهر في صراعه ضدّ الصقيع، الذي جمّد معظم أوصاله. يمكث هناك، الى أنْ تتسلّل البرودة من تحت معطفه (الذي توصّل به على شكل هدية)، مخترقةً جزمته التي صُنعتْ على مقاسه، لتمتدّ الى الوِشاح الصّوفي الذي يطوّق عنقه (وهو وشاح صنعته أنامل امرأة، من ثلّة النّساء اللّواتي ظللنَ يتوفدن عليه، في الصّباح).

في نهاية شهر دجنبر، أصيب السّيد كولوجا بنَوْبة إسْهال، فلزم غرفتَه لبضعة أيّام، في انْقطاع تامّ عن الطّعام والشّراب، مانعا الجميعَ من زيارته وإزعاجه، بأيّ شكل من الأشكال. وظلّ لا يحتسي إلّا نقيعَ أعشاب، يهيّؤُه لنفسه. وحين حلّ عليه مدير الفندق، ليسأل عمّا إذا كان مريضا، أجابه، وقد خجل من الإقرار بالحقيقة، بأنّه في حالة تفكير وتأمّل، تفتَرض أجواء تركيز مطلقة. واستخلص القومُ من هذا، أنّه كان بذلك الطّقس الصّوفي المتزهّد، يهيّئُ نفسه للمرور بصفة نهائيّة الى عالم الأرواح، وأنّ في نيته الإنتحار خلال ليلة رأس السّنة، حين يبلغ الفرح ذروته، لدى الجميع. فتحدثّتِ البلدةُ كلّها بذلك، ما أشعر كلَّ فرد من أفراد السّاكنة ببعض الخجل، لاعتقاد الجميع بأنّه يريد أن يبيّن لهم، بالوضوح اللاّزم، وهو يُقدِم على ما يُقْدِم عليه، خلال ذلك التّوقيت بالذّات، مقدارَ النّفور والإشْمئزاز الذي يسكنه، وهو يُفارق العالم الذي ما يزال الجميع باقٍ فيه.

حينها، توافد عليه أهالٍ كُثُر، كي يلتمسوا منه بضراعة، أن يُرْجئ تنفيذَ مشروعه الى وقت آخر، وانتظار اليوم الذي تكون فيه لكل واحد منهم، الرّغبة الكبرى في البكاء. ظلّوا يتوسّلون إليه لفترة طويلة، فانتهى الى القبول بعدم إضاعة فرصة استمتاعهم بالأعياد. وذهب حدّ أنّه وعدهم بتمالك زمامه، وإكراه نفسه على إحياء حلول السّنة الجديدة، بينهم.

وفي قاعة الفندق الكبرى، التي غصّت بالفعل عن آخرها بالضّيوف، خطف السّيد كولوجا المُتعافى كلية، ممّا سبق أنْ ضايقه، إعجابَ الجميع وتقديرَهم: فقد تعاطى الأكلَ والشّرب، وكأنّه وجد في ذلك ما يُمتعه؛ وذهب به الأمر حدّ أداء أغنيتَيْن، وكأنّ الحياة التي سيفارقها ما تزال بالنّسبة إليه، تحظى بالبهجة والمتعة. إلا أنّه طيلة شهر يناير، لم يفوّت بالمرّة على نفسه، أيّةَ فرصة لتذكير هؤلاء، بتلك اللّيلة.

– كنتم تستمتعون كالأغبياء، يقول. كان عملا شائنا منكم! وكأنّ ما ثمّة معاناة، ولا ثمّة هم، ولا يحزنون!

– وماذا تنتظره من هؤلاء، غير ذلك؟! كان الأعيان يردّون عليه، وهم يعتذرون له عن تلك الأعمال، ويبرّرونها باسم أهالي البلدة كافّة. إنّ النّاس لتَسْتعصي عن كلّ تقويم وإصلاح، يا سيّد كولوجا. إنّها مسكونة بما يسكن الحيوان فقط، من غرائز نهمة. لذلك، لا تفكّر سوى في مُتعها ولذائذها!

– كان بإمكانكم التّعامل في حضوري على الأقلّ، بحيطة وحذر! ألا ترون بأنّ المصير الذي أَهَبُ نفسي إليه، يستدعي الحدّ الأدنى من التّحَفُظ والإحْتراز؟!

ولمّا تناهى الى علم الجميع خبر غضبه المحقّ، انتاب العديدين الخجل، فصاروا كلّما مرّ من الشّارع، يسْتَنكفون عن الإبتسام، ويوقفون نزاعاتهم اللاّغية والضّاجة؛ أما في كلّ الحانات والمقاهي، التي يدلف إليها، فإنّ الصّمت يعمّ الأرجاء، وكمنجات الغَجَر تشرع في تغيير الإيقاع، وتعزف ألحاناً شجيّة وجنائزيّة. لكنّه لم يكن يأبه أبداً بذلك، وإنّما كثيرا ما يكتفي، وقد اندمج جسدا وروحا في التّفكير، بتجنّب الإلتحاق بحلقات الرّواد، الذين لم يعد يخفي ازدراءه الظّاهر لهم. وكان هذا يروق للنّساء كثيرا، فضاعفن المواظبة عليه، وقد وقع منهنّ نسيان كلّ احتراز، بل وذهبن حدّ الإقرار علنا، بأنّ السيد كولوجا الهائل هو رجل استثنائيّ جدّا، في الوجود!

وحوالي تلك الفترة بالتّحديد، طفق المتزوّجون من الرّجال على نحو خاصّ، يقترحون عليه بطريقة مشفوعة باللّطف والمحبة الكبيرين، وجميعهم يقسم بأغلظ الإيمان، بأنّ الغيرة لا تعرف طريقها الى قلبه، أن يعتمدَ أسلحة من النّوع المجرّب، سلفا: مسدّسات الكولْت القديمة، وأخرى من نوع البراونينْغ العصريّة، وأسلحة ناريّة أخرى من النّوع الأنثويّ الأنيق. لكنّ

السّيد كولوجا ظلّ يشكر الجميع، ويقول إنّه سيختار لنفسه، احتراما منه وتقديرا لموته الخاصّ، الوسيلة الأكثر طرافةً وابتكارا، لتوديع هذا العالم العبثيّ.

وذات يوم من الأيّام الجميلة، قال له أفضل حلاّقي البلدة كلّها، بأنّه يودّ لو ساعده.

- ماذا تريد أن تقوله، صراحة؟ سأله السّيد كولوجا. حبذا لو كشفت لي بصراحة، عن الصّنيع الذي تودّ اقتراحه عليّ.

- الأمر لا يتعلّق بصنيع، تمتم الحلاّق بطريقة مشوبة بالإضطراب. أنا لا أعرف ماذا يعنيه لفظ «صنيع»! يتعلّق الأمر بمسألة في غاية الفنّية، يا سيّدي العزيز! الأمر متعلّق بالفنّ!

- إذن، أفصح. ماذا تنتظر؟

- تُرى، كيف يمكن لي أن أعبّر لك، عن ذلك؟ يمكن لي، ببركة منك طبعاً، قطع عنقك! شفرتي من فولاذ سويْديّ، وأنت لن تشعر بأيّ ألم.

- وماذا لو شعرت به، مع ذلك؟

- أقسم لك بشرفي، بأنّ كلّ شيء سيتمّ في رمشة عين. اللّهم إلا إذا كنتَ ترشّح أن أصنع لك شِقّا من نوع خاصّ، على يسار الحلقوم، ممّا يستعمل كثيرا في بلدان الشّرق.

- فعلا، سيكون هذا رائعا. لكنّي أرفض تضحيتك من أجلي، قال السّيد كولوجا الشّهم. لأنّك ستصاب فيما بعد بالأرق، وستهجم عليك نوبات الحسرة المريرة؛ أليس كذلك؟

- بالعكس، يا سيّدي العزيز. صاح الحلاّق. بالنّسبة لي، سيكون هذا مناسبة ارتياح كبرى. تصوّر أنّي ظللتُ مسكونا منذ سنوات تعلّمي الأولى

لهذه الحرفة، بالرّغبة في الضّغط بالموسى على عنق أيّ زبون!

- ولماذا انتظرت كلّ هذا الوقت؟

- ظلّت تخونني الشّجاعة، ويجفّ لساني في اللّحظة الأخيرة، ويضطرب بصري، وتستبدّ بيدي رعشة مخجلة، الى حدّ أنّ عدّة زبائن كانوا يسألون إنْ كنتُ فعلاً، أُتْقن شغلي. بالتّأكيد، أنا لا أجرؤ على تفسير سبب ارتعاش اليد أبدا، لكنّها ترتعش ما شاء لها ذلك، الى أن تستثير التّقزز في النّفوس.

- هذا مهم! غمغم السّيد كولوجا، وقد امتقع لونه. لكنْ، ما الذي ستفعله، لو أنّها ارتعشت معي، أنا الآخر؟

- أوه! أنت، كلاّ، كلاّ! معك أنت شيءٌ آخر. قال الحلاّق مُحَوْزقا. فأنت بالذّات من اختار موته، ثمّ إنّك جئت من مدينة كبرى وعصرية، وهذا كلّه مستفزّ كثيرا.

بعد أنْ لاذ السّيد كولوجا بالصّمت، أخذ ينقر بأصابع يده فوق الصّفيحة، التي يعتمد عليها الحلاّق. فبدا وكأنّه بذلك، يفكّر. ثمّ إذا به ينهض من مكانه بشكل مباغت، ويسرع في فتح باب الغرفة. وودّ لو استطاع أن يصرخ، لكنّ الصّوت خانه، فأجهد نفسه كثيرا لاستعادته، وقد اندهش أشدّ الإندهاش، للرّعب الذي سيطر عليه. ثمّ انتهى بعد جهد جهيد، الى تحريك شفتيه، وقال:

- في المستقبل، سأحلق ذقني بنفسي!

- أردتُ أن أساعدك، فقط. قال الحلاّق متمتما. لقد تعوّدتُ على عنقك منذ أشهر عديدة، الى أنْ صرتُ متيّماً نوعا ما به!

- أُخْرُج من هنا حالاً، يا مجرم! قال السّيد كولوجا بنبرة صارخة.

وفي اللّيلة التّالية التي كانت أبرد ليالي فبراير، رأى بعض الكوابيس في المنام: مشهد موته في أشدّ جزئية من جزئياته بشاعة وفظاعة. وبات ليله يفيق من النّوم في كل لحظة، وقد غرق في مستنقع العرق، وهو يلهث. وانتهى به الأمر أخيراً، الى النّهوض من الفراش. لفّ نفسه في لحاف الصّوف الدّافئ، وشرع يذرع الغرفة طولا وعرضا، وهو يدخّن السّيجارة تلو الأخرى. وشعر في قرار نفسه، وهو يصيخ السّمع الى صوت الرّيح الغريبة والمخيفة، بأنّه وحيد وضائع ويائس، وكأنّه أوقع نفسه بنفسه، في مقلب سيِّء. وقرّر مع مطلع الفجر، التّخلي عن المكان برمّته، في أقرب فرصة. ثمّ عاد الى النّوم مجدّدا، وقد هدأ تروّعه في النهّاية، فاحتضن ركبتيه بيديه الطّويلتين والنّحيفتين؛ وصار يبتسم في اللّحظة الموالية، وهو يحلم بالبحر.

لم ينهض من نومه إلّا بعد منتصف النّهار. تناول طعام الغذاء بالتذاذ، وقد انتعشت دواخله أشدّ الإنتعاش، لفكرة انتهاء الكابوس المخيف. لقد كان في نيته القيام بآخر نزهة في الشّارع الكبير، والخروج سرّا من غرفته بعد هبوط اللّيل، ثمّ السّفر مع أول قطار في اتّجاه الجنوب. بالتّأكيد، لن يغادر البلدة دون أسى، لكنّ أملا كبيرا سكن جوانحه، وأشعره بالتّفاؤل بإمكانية إيجاد أماكن أخرى، بين ربوع هذا العالم الفسيح، يمكنه أنْ يستقرّ فيها، وأنْ يطيب له المقام بين أرجائها.

***

وفي ظهيرة ذلك اليوم، زاره وفد من أعيان البلدة، يتكوّن من سبْعَةِ نَفَرٍ، فشعر على إثْر رؤيتِه لوجوههم الكامدة، بشرارةٍ حارقةٍ عبَرَتْه، كانت ربّما بمثابة حَدْسٍ من جملة حُدوسه. ومع ذلك، عثر في نفسه، على ما يُقَوّيه، ويدفع به الى تَجَشُّم الإبتسام في وجوههم.

- طاب نهارك، سيّد كولوجا.

- نهاري؟! تدركون بأنّ نهاراتي معدودة. أجاب بنبرة حادّة.

- لك أنْ تسامحنا. فما جاء بنا هو هذا، بالتّحديد. قال أكبرهم سنّا.

- أنا لست مستعدّا بما يكفي لكم، خلال هذه الأثناء. عودوا إليّ مرّة أخرى.

ودون أنْ يتجرّدوا من معاطفهم، ولا من قبعاتِ الفِراء، اتّخَذوا لهم أماكنَ للجلوس في الغرفة: اقتعدَ أربعةٌ منهم فوق الأريكتين، وجلس آخران منهم فوق السّرير، بينما بقي أضْخَمُهم مستنِداً بظهره الى باب الغرفة، في وضعية وقوف.

- حان الوقت لتقدّم لنا توضيحات! قال كبيرهم، وعيناه الزّائغتان تَطْرُفان.

- ألا يبدو لكم بأنّ كلّ شيء واضح؟

- في الواقع، لا. أنتَ وعدتنا بقتل نفسك، منذ مدّة غير يسيرة. لكنّ الوقت يمضي، والإنطباع بأنّك خدعتنا، ما ينفكّ يكبر لدينا.

- ما هذا الكلام، الذي أسمع؟! قال، وهو يرتجف. ما حصل هو أنكم أنتم من خدعني، بالفعل. أنتم من أقنعني بالعدول عن التّفكير، في مشروع الخلود الى سكينتي النّهائية، خلال أعياد الميلاد؛ وها أنتم تفرضون عليّ الآن، في الوقت الذي أنتظر فيه عودة الإلهام، مواصلةَ النّظر إليكم، وتحمّلَ وجودكم!

- أما نحن فمللنا من رؤيتك، وانتظار خلودك الى هذه السّكينة النّهائية، التي شدّ ما سمعنا عنها.

- كيف تسمحون لأنفسكم بالتّدَخل الجرّيء في مصيري؟ قال السّيد كولوجا، صارخاً.

- لدينا الحقّ الكامل في هذا، يا سيّدي العزيز. لأنّ موتك الذي خدعتنا به، صار جزءً لا يتجزّأ من حياتنا، الآن. فقد لاطفناك، ودلّلناك لمدّة ستّة أشهر، وشعرنا معك بالحرج والإنزعاج، وأهملنا أيضاً مصالحنا وأعمالنا. بينما ظللْتَ أنتَ طيلة هذه المدّة، عوض القيام بما يتوجّب عليك، والوفاء بالدّيْن الذي بذمّتك، تُسْرف في استغلال طيبوبتنا وصبرنا. لقد بذّرتَ أموالنا، واستمْتَعْتَ بكلّ المُتَع واللّذائذ التي وفّرناها لك، وزرعت فوق ذلك، الفاحشة في المجتمع. بل ذهبتَ حدّ أنْ سمنت! وكلّ هذا على حسابنا!

- لكن، أنتم من رغب بالذّات، في تعهّدي ورعايتي. قال صارخا. وإنِ اعتقدتم بأنّي لم أدرك حيلتكم منذ البدء، فقد أخطأتم خطأ ذريعا. إذ يُفترض أن يكون المرء غبيا حقّاً، حتّى لا يدرك بأنّكم إنّما كُنتمْ، طيلة هذه المدة كلّها، تستعملونني لغاياتكم الدّعائية. لقد سكنَكُم أملٌ خفيٌّ في أنْ تَنْتهوا بفضل مَوْتي، بالظّهور في الجرائد أو في التّلفزيون حتّى، من غير أنْ تصنعوا أيّ شيء لذلك. فتفرضون على الرّأي العام بذلك، وجودَكُم عديم الأهمية، وتنتهون فوق كلّ هذا وذاك، الى جلب السّياح الى بلدتكم الرّيفية، التي ظلتّ تبدو لي - حتّى أكون معكم صريحا - بلدةً بشعةً، باستمرار!

- أوه! صاحوا سبْعَتُهم، دُفْعَةً واحدة. أبهذا تجازينا، وتردّ دين هذه البلدة عليك؟ أبهذا تشكر صنيعَنا؟

- كلّا، كلّا. صاح بدوره، بينما يشدّ الغضبُ على خناقه. لأنّا إذا أردنا القيام بعملية حسابيّة، لمجموع ما حصل في النّهاية، فسأطالبكم حالاً بنِسْبَتي من الفائدة التي ستحققونها، بفضل سذاجتي!

– أنت نذْلٌ سافلٌ بحقّ، يا سيّد كولوجا! قال أحدهم، فانتهى الآخرون الذين سكنهم سُعارٌ مشفوع بالعجز، الى تحريك الرؤوس تأكيدا منهم جميعاً، على صحّة هذا الحكم.

– إنْ واصلتم سبابكم لي، فسأغادر بُليْدتكم المتّسخة، حالاً. ثمّ إنّي ما نزلت فيها من القطار، في كلّ الأحوال، إلّا عن طريق الخطأ.

– عن أيّ قطار تتحدّث، يا صاح؟ ها أنتذا تعود مرّة أخرى، الى هَذْرك وخَرَفك. وكأنّك لا تعلم بألّا طريق لنا هنا رئيسيّا، ولا سكّة حديد!

نكّس السّيد كولوجا رأسه، ومكث للحظة مقوّس الظّهر صامتا، حتّى إنّ من رآه على تلك الحال، لا يلبث أن يقول بأنّه تعب بشدّة، ولم تعد له القوّة اللّازمة للتصدّي لهم. وفي خضمّ تلك الأثناء، تذكّر مرّة أخرى الحديث الذي دار بينه وبينهم في المرّة الأولى، حين قالوا له منذ ستّة أشهر خلتْ، بأنّ ذلك القطار اللّعين الذي جاء به، مع ذلك، ما كان سوى مجردِ وهم مُخْتلق. فأجهد نفسه للعثور، بين طبقات ذاكرته، على رجع صدًى لصفير القاطرة، أو لضجّة سكّة الحديد الخشنة والنّائحة، على الأقلّ؛ لكنّه لم يتذكّر أيّ شيء. ثمّ استعاد في ذهنه جميع الميادين الغائمة القَفْراء، التي تحيط بالبلدة، وغالبا ما كان يُشاهدها أثناء جولاته اليوميّة، وهو يفكّر بحسرةٍ لاإراديّةٍ في ضجيج المدينة الكبرى، واصْطِخابها؛ لكنّه لم يعثر في ذهنه للأسف الشّديد، على أدنى صورة لحجارة الرّصِ، أو حتّى على جُفاء الحديد. «ربّاه! كيف وصلت الى هنا؟»، تساءل في قراره، فأحسّ بقشعريرة الرّعب، تنتشر في جسمه.

– ماذا يشغل بالك، الى هذا الحد؟ قال الشّخين الذي يقف ملتصقا بدفّة الباب، وهو يضحك هازئا. ربّما، ثمّة وسيلة أخرى للذّهاب من هنا!

نظر السّيد كولوجا في اتجاه محدّثه، دون أنْ ينبس بأيّة كلمة، وإنّما اكتفى

بمجرد نظرة، تلبّستْ بالكثير من التّشَوش والإضطراب؛ ما دفع بالرّجل الثّخين الى مواصلة حديثه، بنبرة بدت مشبعة بكثير من الملاطفة:

- يمكنك النّزول الى النّهر مثلاً، والإندفاع مع مياهه المنسابة، التي ستُوصِلك الى الشّمال حتماً، في طرفة عين.

- لكنّي لا أتقن السّباحة. ردّ السّيد كولوجا، وهو ينتفض.

- لهذا بالذّات، اقترحنا عليك هذا! قال الأكبر سنّا، ثمّ انفجر يضحك.

- كلامكم مجرد حماقات. قال، وهو يضحك مستهزئاً كذلك. أنا من ينبغي له في كلّ الأحوال، أنْ يقرّر في مصير حياته.

- ثبْ الى رشدك، يا رجل! فحياتك صارت ملكنا الآن، لأنّك أهنتنا بما يكفي. وأفظع ما في المسألة، أنّ نساءنا لا يتحدّثْن إلا عنك! إنهنّ يُحْبِطننا، ويؤكّدن على أنّك الرّجل الوحيد الإستثنائيّ!

- النّساء يُمَيّزن بين الرجل الحقيقيّ وبين غيره، دائماً. قال بصوت مهموس، وباعتداد بالذات ليس فيه مواربة، ثمّ ألقى نظرة صوب وجهه، التي انعكست على صفحة المرآة صورتُه، وهو الوجه الذي شرع يُعجَب به كثيرا، منذ مدّة غير يسيرة.

- سنخبر زوجاتنا بجُبْنك. وحين يعلمن بحقيقتك، ستزدريك المدينة كلّها.

- لكنّ المدينة تكنّ لي المحبّة والتقدير. صاح، قائلا.

- ستزيد في ازدرائك، أكثر فأكثر.

- مهلا، مهلا! أنا لم أكذب على أحد! أقسم لكم بشرفي، بأنّي ما زلت عند وعدي.

– لم يعد يعنينا وعدك، في شيء: فهو بلا قيمة على الإطلاق، ما دمت حيّا! بالأمس فقط، انتهينا الى معرفة هذا، حين أظهرتَ للحلّاق خوفَك المُخْجل من الموت.

– كان ذلك مجرد سوء تفاهم. قال، بصوت مرتجف.

– إذن، لنتفق حالاً، فيما بيننا على هذا: أثبتْ لنا بالملموس بأنّك تملك ذرّة من الشرف.

اتّجه السّيد كولوجا صوب النّافذة، وسحب بأصابع يده الجامدة، ستارة الدّانتيلا: كان ضباب فصل الشّتاء في الخارج، على هيئة كتلة تكثّفت عناصرها، حتّى غدتْ على هيئة ظلال جامدة؛ فبدت له فجأة، وكأنّها ترتفع من فوقه، كلوحة مرمريّة سوداء. وعلى إثر ذلك، أحسّ بالبرودة تغزو رجليْه، كما شعر بالحسرة والأسف، لأول مرّة (منذ أنْ مضتْ عليه فترة طويلة، لم يشعر فيها بذلك أبدا)؛ لتخلّيه عن غرفته الصغيرة هناك، ذات السّقف المنحنيّ، وعن حياته العاديّة والخاليّة التي أفلتت من قبضته. ثمّ استدار نحو زواره الذين كانوا، بمعاطفهم المزرّرة، يفركون قبعات الفرو بين أيديهم، على نحو ميكانيكيّ، وهم ينتظرون توضيحات منه. «ذرية الكلاب!»، ردّد في نفسه، ثمّ سألهم بعدها، بصوت خرج من فمه على حين غرّة، فلم يتعرّف عليه:

_ ما اسمُ غَدٍ؟

– الأحد، إذا كان هذا يروق لك، أيّها العزيز.

– إذن، انتظروني عند الجسر، غدا. قال بنبرة حاسمة.

***

حين غادروا، انْخرط في العمل، دون إضاعة أيّة ثانية: ملأ حقيبتيه الصّفراوين الكبيرتين بسرعة، وارتدى معطفه، ثمّ غرس قبعته السّوداء في رأسه، حدّ العينين. بعد ذلك، فتح باب الغرفة، بحرص شديد. للأسف! كان اثْنان من زوّاره الأشدّ حزماً، يقفان في البهو؛ وقد ابتسما معاً في وجهه مباشرة، وكأنّهما كانا في انتظاره.

- عجباً! قال. أما تزالان، هنا؟ أنا ذاهب، والحالة هذه، للقيام بجولتي اليوميّة.

- خذْ حذرك جيّداً، أوصاه أقواهما بنية. فمن الممكن أن تصاب بنَزْلة برد، وهو ما لن يتناسب مع ظرفيتك، لأنّ من سيراك بأعراض الزّكام يوم غدٍ، سيتهيّأ له بأنّك تبكي!

عاد الى غرفته مرّة أخرى، وأغلق عليه بالمفتاح. بقي هناك، بضع لحظات بقرب حقيبتيه، وكان عاجزا كلّ العجز عن القيام بأيّة حركة، أو الإقدام على أيّ شيء، مهما كان. استبدّت بكامل جسمه رعشةٌ راجفة. «ربّاه ! صاروا مجانين، حقيقةً!» قال في نفسه، ثمّ تقدّم صوب النّافذة، ليقيس مقدار العلو، الذي ينبغي له أن يقفز منه. إلا أنّه أبصر (من خلال ضوء القمر الغامر بالبرودة، الذي كشف له عن أروع منظر من المناظر، التي لم يسبق له قطّ أن شاهدها)، شبحَ ثلاثة من زواره السّبعة، يرتدون عباءاتٍ وقُبّعاتٍ من الفرو، ويحملون في الأيدي العِصي، ويذرعون السّاحة بالطّول والعَرْض، ويرفعون بين الفينة والأخرى، رؤوسَهم في اتّجاه نافذته المضاءة، لمراقبتها.

تراجع السّيد كولوجا بضع خطواتٍ الى الخلف، ومدّ يده بعصبيّة الى سمّاعة التّلفون، كي يمسك بها، إلّا أنّ التلفون لم تكن به حرارة. «لقد دبّروا كلّ شيء، عن سبق إصرار وترصّد!» فكّر، ثم انخرط في البكاء. كانت الرّيح في الخارج تعوي بقوّة كبيرة جدّا، فلم يحاول حتّى الصّراخ لطلب النّجدة.

أضف الى ذلك، أنّ ما من أحد في هذه اللّيلة الشّبيهة بالخياليّة تقريباً، كان سيستجيب لندائه. ولمّا اقتنع بأنّ ليس بيده أيّة حيلة، تهاوى من تلقائه فوق السّرير. فبدا برأسه المرتدّة الى الخلف، وذراعيه المشبكتين على الصّدر، وذهنه الفارغ، وكأنّه استسلم للقدر.

***

مع خيوط الفجر الأولى، طرقوا باب غرفته، وطلبوا منه القيام من النّوم على الفور، إذا كان في نيته الموت حقّاً، بشرف. لم يعد يدهشه منهم أيُّ شيء، كما لم يرتع بالكلّ من الإنتقام المنتظر، لأنّه نجح أثناء اللّيل، وهو في ذروة يأسه، في العثور على وسيلةٍ من شأنها إسعافه بالإنفلات، من ورطته. لذا، مكث في تلك الأثناء، ممدّدا على السّرير، وهو مختبئ وهادئ وصامت. ووجد متعة في سماعهم، يتخبّطون، وهم يردّدون بأنّه تمكّن من الفرار عبر المدخنة، أو بشنْق نفسه بحبل، دلاّه من الثُّريا. ولم يخرج عن صمته، إلا حين قاموا بكسر دفّة الباب، ودخلوا عليه. حينها، صاح فيهم قائلا، بنبرةٍ مشوبةٍ بالغضب:

- ألا تخجلون من أنفسكم؟ كان عليكم تَرْكي على الأقلّ، أنعمُ بالنّوم لآخر مرّة.

طبّق الصّمت على الممرّ كلّه. بعدها، علا صوتٌ ملاطفٌ يسترضيه، بنبرة عذبة تقول:

- نمْ، نمْ يا سيّد كولوجا. سننتظر الوقت اللاّزم.

بالطّبع، لم يفكّر السّيد كولوجا في العودة الى النوم، إطلاقا. لكنّه لم يرغب كذلك في الخروج لملاقاتهم، بسرعة. لذا، انكبّ على حلق ذقنه بطريقة

استعراضيّة هادئة، حرص فيها كثيرا على ألّا يتسبب في جرح بشرة وجهه. ثمّ ارتدى بعد ذلك ملابسه، بعناية فائقة أيضا، وقد حرص تماماً على التّنسيق بين لون القميص، وربطة العنق، والجوارب، ثمّ لون البذلة الزّرقاء الفاتحة. مثلما أمضى فترة لا يستهان بها، في النّظر الى صورته المنعكسة في المرآة الكبرى، بزهو وخُيلاء، وكأنّه يُعِدّ نفسه لحضور حفلة عرس، أو احتفاليّة مهمة.

هذا من جهة، أمّا من جهة أخرى، فإنّه لم يعد يشعر بأيّ خوف، إذ صار بإمكانه أن يختار بين إمكانيتين، من شأن كل واحدة منهما إنقاذ حياته، وضمان هيبته. «فإنْ فشلتا معا، سيتبقى عليّ الاعتماد على القدمين، حينها. قال بصوت مهموس. وسنرى ما الذي يركض بسرعة: خوفي أم غضبي». ثمّ شرع يترنّم بالصّفير، حين اطمأنّ الى أنّه أعدّ كلّ شيء مثلما ينبغي، واحتسب له احتسابا. وفي الأخير، فتح الباب بحركة قويّة، وقد انتهى الى اعتماد الحيلة الأولى، التي بدت له مناسبة أكثر.

- عجبا! أبهذه السّرعة حصل استعدادك؟! صاح زوّار الأمس جميعهم دفعة واحدة، وهم في غاية السّرور.

- ظَلَلْتُ دوما على أتمّ الإستعداد، لأنّ الموت من ميولاتي الحقّة، قال. لكن، ينبغي لنا للأسف، أن ننتظر قليلا.

- ولِمَ إذن، ما دام كلّ شيء قد تقرّر؟ زد على ذلك أنّ النّاس قد تجمّعت منذ وقت سابق، عند الجسر.

- لهذا بالتّحديد، أطالب بالانتظار. قال، وهو يبتسم، ويمرّر برفق أصبُعَيْن اصْفَرّا من أثر النّكوتين المُفرط، على شاربيْه الملفوفين على شاكلة عَلَقَتَيْن. قد يكون من بين الحضور، ممثلو السّلطة المحليّة التي تأخذ على عاتقها بالطّبع، مهمّة منع النّاس من قتل أنفسهم أو غيرهم، حتّى في هذه البلدة نفسها!

- من هذه النّاحية، اطمئن. لا تشغل بالك، يا سيّد كولوجا. كلّ الشّخصيات الرّسمية غادرت هذا الصّباح، للتّزحلق على الثّلج.

- يا للمصادفة! قال، وقد اختنقت أوداجه.

- بالعكس. إنّهم تعمّدوا هذا بالذّات، حتّى لا يزعجوك.

- هي عناية خاصة إذن، منهم! قال، وهو يوزّع النّظرات ذات اليمين وذات الشمال، ويتساءل حول ما إذا كان ينبغي له مواجهة قدره، أم الفرار حالا.

لكنّهم حملوه بين الأذرع باحترام تامّ، وقادوه بحرص وعناية الى الخارج. لم يقاومهم، ولا اعترض عليهم. «سيكون بوسعي دوما، أنْ أفرّ في الوقت المناسب، فكّر. إنّما تيتعيّن عليّ أنْ أحاول الحفاظ على شرفي، أيضا!». مشى بخطو بطيء، تحت أشجار الحور ذات الأغصان العارية، التي كانت تتأرجح فوقها الغربان المكسوة بالصَّبَر الصّقيعي، فشرع يردّد في نفسه ذلك الخطاب، الذي أعدّه إعدادا فيه عناية، وانتقى جميع كلماته بشكل مدروس، وقد أرادها أن تكون مؤثرة، إذ بفضلها سيستثير الأشجان والأحزان (مثلما ظنّ)، فتفيض العيون بالدّمع، ويُسمَع لها صياحٌ ربّما، أو تقع على إثرها إغماءة من هذه المرأة أو تلك، من بين النّساء اللّواتي توافدْنَ عليه من قبل، في الصّباح. حينها، ودون أن يُفرّط في عزة نفسه، سيتراجع عمّا خطّطه، «إكراما منه - سيقول - لهذه المرأة المحترمة، التي يبدو أنّ قلبها أوشك على الإنفطار من شدة اليأس»، في لحظة الإعلان عن مشهد الموت، الذي شدّ ما ظلّ مرغوبا، وكاد أنْ يتحقق.

وقد أعادت له هذه الحيلة الثّانية، التي تدبّر تفاصيلها الصّغرى بعناية وترصّد، ثقتَه في النّفس التي تزعزعت من قبل، بينما صار يقترب من الجسر،

بخطوات غدت غير واثقة، وبوجه غدا أكثر شحوبا. ولكي يسيطر على خوفه من الموت تماما، الذي شمّ في خياشيمه، رائحتَه النّفاذةَ مساءَ البارحة، طفق يُصَفّر بهيئَةِ مَنْ يرفع عنه التحدّي. وحين بلغ ناحية الجسر، تناهى الى سمعه همسُ البعض، الذي قال «إنّه يصفّر بسرور، حتّي يودّع بذلك الحياة، التي تعب منها». رفع رأسه للحظة، فشمل بنظرةٍ غشيها الدّمعُ، الجموعَ التي احتشدت في ازدحام رهيب، واحتلّت الجسر وضفّتي النهر.

بدا له أنّ المدينة برمّتها، اجتمعت هناك، لتودّعه بصُياحها الحماسيّ، وكافّة عناصر البذخ اللاّزمة لنهايته. فنسي في الحال خوفه، وانساق مع ذلك المشهد. وحاول أن يبعث على الأقلّ، بتحريك قبّعته بحريّة اللّون تحريكاً دائريّا، بعض التّحايا الى تلك الجموع المتوّجَة له، التي صارت تتنحّى الى الخلف، كي تتركه يعبر. «كلّ هذا من أجلي! فكّر، ولبّه مسلوب. عيونهم تركّز النّظرات علي، وتنتظر في ارتعاش رؤيةَ ما سأقوم به. ربّاه! إنّها اللّحظة التي كثيرا ما رغبتُ فيها، وتمنّيتها في حياتي!». وبغتة، التمعت في دوامة وعيه المضطرب، بفعل الزّهو والخُيَلاء، الفكرةُ الأخطرُ التي تفيد بأنّ ما يحدث له (في تلك اللّحظة بالذّات التي تُكفّر عن بقية اللّحظات المريرة الأخرى، التي رافقتْ مسارَ حياته الماضيّة)، كفيلٌ بدفعه الى ملاقاة الموتِ، بغير أسى ولا أسف. إلاّ أنّه سرعان ما أبعد هذه الفكرة، ليبدأ وكيفما اتّقف، ارتجال خطبته الذي سبق أن أعدّها الإعداد اللاّئق.

- شكرا على حضوركم بهذا العدد الغفير. ها هي ذي لحظة الوداع قد حانت، ولم يتبقّ لنا سوى النّظر للمرّة الأخيرة، الى مرآة أنفسنا، والى حياتنا عديمة الأهمية...

- اتركنا وشأننا، واهتم فقط بشأنك. صاح أحدهم، قائلاً.

وعلى إثر ذلك، مكث السّيد كولوجا ذاهلا. لكنّه شعر بالفرح فجأة،

لتعرّفه في غمرة ذلك التكتّل الغفير والصّامت والجامد، على عدّة نساء ممّن عوّل على حِسّهن المرهف؛ وكنّ جميعهنّ، وكأنّهن تعمّدن ارتداء أزهى الثياب، أجمل وأبهى هيئةً ممّا بَدَوْن عليه في السّابق، لأنّ حزنهن المتخفّي تحت الإبتسامات، التي بالكاد تظهر على محيّاهن، أضاء وجوههنّ، وطبعها بذلك التّميز الخاصّ، الذي لا ينتمي إلا للألم المتواصل. بعد ذلك، أبصر شيوخا من ذوي العاهات، كانوا بعباءاتهم المبرقشة، التي تدثروا بها، يجلسون فوق مقاعدهم، بينما أسنانهم تصطك، وهم ينتظرون بفارغ الصّبر، أن يبقوا في الحياة من بعده، هو الآخر. ولم يعر أيّ اهتمام للأطفال ولا للصّبيان، الذين ازدحموا من حوله، ومدّوا ألسنتهم في وجهه؛ وإنّما انشغل بشكل كبير، بحضور الأعيان الذين بقيت وجوههم الوقورة والقاتمة، تسترعي منه اتخاذ الحيطة والحذر.

«تنبغي مداهنتهم!»، فكّر. ثمّ باشر يؤكّد لهم، كيف أنّه اكتشف بأنّه عاش بكيفية غير متوقّعة، في بلدتهم السّاحرة، (إنّما في وقت جدّ متأخر، لا يمكن له أن يغيّر فيه للأسف، موقفه إزاء ما قرّ عليه عزمه، الآن!)، أروع لحظات حياته، وكيف أنّه اتّخذ من ساكنتها أصدقاءً له، هو الذي لا يذكر بأنّه اتّخذ في حياته السّالفة أصدقاء، أبداً. والآن، وهو في هذه اللحظة، التي يستعدّ فيها للمغادرة الأبديّة، مثلما وعدهم من قبل، لا يستطيع منعَ نفسه من التّساؤل حول ما إذا كان ثمّة، شخصٌ منهم قد يشعر بأنّه سيفتقده، أو أن يتذكّره على الأقلّ.

أراد التّأكد في الحال، من أثر ما أحدثته تلك الكلمات، التي عقد عليها الأمل كلّه، فأخذ في تفحّص وجوه الأعيان المحيطة به، بانتباه وتركيز كبيرين. لكنّ تلك الوجوه ظلّت هادئة وجامدة، ولا تكشف بتاتاً، عن أيّ تأثر أو انفعال. وحتّى النّساء اللّواتي أمضى برفقتهنّ، مجموعةً من الصّباحات العذبة، لم تَبْدُ على وجوههنّ أية نية، للإعتراض على ما تقرّر

لمصيره: كنّ يبتسمن له، ابتساماتٍ ملغزةً، برؤوس مالتْ بشكل ساحر، وكأنهنّ يتأمّلن خلال تلك الأثناء، في مرآة أنفسهنّ. وعبثا، ظلّت نظراتُه تتوسّل إليهن، وتناشدهنّ بالإنخراط في البكاء والتفجّع على مصيره: بَدَوْن له، وهنّ مُغَيّبات أكثر ممّا تصوّره، وكأنّهن أسيراتُ تعويذةٍ سحريّة. وفجأة، أدرك السّيد كولوجا في ذعر، بأنّهن كنّ ينتظرن موته، بشغف وتعطّش أقوى بكثير، من بقية الحشد. وأنّه إنْ بقي على قيد الحياة، فجميع ما عِشْنَه معه، سيفقد معناه وجماله، اللّذين هما معنى وجمال القَدَر، الذي أرَدْنَه هو بالذّات أن يحمل وسْمَه.

- أخدعْتُ؟ تمتم، في همس.

ومع هذا، لم يشأ تصديق ذلك، حتّى ولو أنّه أُمِر بغلظة، كي يسرع بالقيام بما اجتمع الكلّ هنا، ليشاهده. «لقد جمّدتهم البرودة»، فكّر في نفسه، فشمل الحشد مرّة أخرى، بنظرة فيها اندهاش: ما تزال النّسوة يبتسمنَ بكيفية ملغزة، والأطفال يقضمون التّفاح بعناية خاصّة، والغجر يعزفون ربّما عن خطأ، لحناً فيه المرح، عوض أن يعزفوا نشيداً جنائزيّا. بينما الشّيوخ ذوو الشَّعَر الأبيض، فيحرّكون رؤوسَهم، وقد غَفَوا على الأرائك، مطمئنين على ما يبدو، لكون الموت اختار شخصا آخر، أقلّ منهم حظّا وسنّا.

الوداع، يا حُظْوَتي! قال السّيد كولوجا مرتجفاً، وقد قرّر الإسراع في الهرب. بالتّأكيد، لم يرغب في أنْ يتوسّل الرّحمة منهم، ولا الشّفقة. ذلك أنّه لم يقو على تعريض نفسه للمذلّة والمهانة، الى ذلك الحدّ السّافل. «سأفرّ بجلدي. فهذا أدْعى للشّرف، وأضمن للسّلامة، بداهةً!»، فكّر. إلّا أنّ الأجساد المتراصّة حوله، وكأنّها جدار بشريّ، لم تترك له سوى إمكانية واحدة، لا بديل له عنها: تخطّي حاجز الجسر، الذي ظلّ يستند إليه، من جهة الخلف، والقفز في اتّجاه النهر. ولمّا لم تعد بيده أيّة حيلة، ابتسم دون

أن يفهم، للحظات. بعدها، خطرت بباله، وهو في قمّة اليأس والإحباط، فكرة أنّ مشيه فوق الحاجز، فسيفلح في جعله يبلغ ربّما، ضفّة الجسر الأخرى التي يغلّفها ضباب كامد، سيمكّنه من الإختفاء وسطه، في طرفة عين. ودون التّردد، ارتقى فوق الحاجز الحجريّ، تحت هتافاتٍ وتصفيقاتِ الحشْدِ الغفير. «ربّما استغلّ هؤلاء التّصفيق لتدفئة أيديهم»، فكّر.

وعلى نحو اعتباطيّ، راودته فجأةً، فكرة فظّة تفيد مرّة أخرى، أنّ أفضل ما في الوُسْع أن يفعله، هو الإقدام التّلقائيّ على الموت. ودون اتّخاذ احتياطه حُيال هذا الإغراء، أرسل الى الموكب المشيّع تحيةَ تقدير وإجلال، وقال مخاطباً الجماهير الواقفة بقرب موطئ قدميْه، بصوتٍ يصمّ الآذان، لا يمكن للمرء أن يلفي فيه، ما يشي بالخوف ولا الأسى؛ بينما ذراعاه مرفوعتان الى السّماء:

– لماذا لا تغنّون لي، شيئا ما؟ فهذه اللحظة هي في كلّ الأحوال، من أشدّ لحظات الفرح، في حياتي!

وفي الحال، شرعت الجماهير في ترديد نشيد: «لترْقُدْ روحه في أمان». وعلى إثر هذا، أخذ يتقدّم بخطواته، فوق حاجز الحجر العريض، في هدوء وحذر شديدين، وكأنّه أعمى. ظلّت عضلاته منقبضة، وذهنه مركّزاً على حركات ساقيه الطّويلتين، بينما هو يحافظ على التّوازن، بذراعيه المرفوعتَيْن الى فوق. نظر أمامه على نحو مستقيم، في اتّجاه النّاحية البعيدة التي ظلّ يغشاها ضباب رماديّ كثيف، ولم تحْتَدم بين أرجائها بعدُ،حركةُ الغربان الهائجة. لكنّه لمّا وصل الى منتصف الجسر، ووجّه نظراتِه صوب النّهر، الذي بقي منساباً في صمت وبطء مطلقيْن، وكأنّما توقّف عن الجريان، في انتظار أن ينضمَّ إليه، بين الحين والآخر؛ شعر ببعض الدّوْخة، فتوقّف جامداً في مكانه فجأة، وبذلك توقّف الحشد الغفير عن الغناء، أيضا.

لم يتناه الى سمعه، وسط موجة الصّمت المباغتة، التي رانت على الجميع،

سوى عويل الرّيح في الأعالي. نكّس السّيد كولوجا رأسه، وقد تهيأ له أنه يسمع آخر نبض من نبضاتِ قلبه. لقد أحسّ في الواقع، بأنّه لم يعد يقوى على التّقدم الى الأمام، ولو بمقدار خطوة واحدة، ولا على محاولة القيام بأيّ شيء آخر، من شأنه إنقاذه؛ فشعر على إثر ذلك، بأنّه وقع أسيرَ الخجل، بتأثير من فكرة الخزي والمهانة، التي كانت تنتظره. حينها، فتح فمه، وأخرج من بين شفتيْه صوتاً، تغيّرتْ نبرتُه، ثمّ قال:

- إخواني! إنّي أخطأتُ مع ذلك، التّقدير: فنهركم التّافه هذا، سينقلني باتّجاه الشّمال.

- وهل لهذا أهمية؟ قال أحدهم.

- بالطّبع، له أهميته. فأنتم تعلمون جيّداً، بأنّي أرغب في الذّهاب دائماً الى الجنوب، ولو في موتي!

- الى البحر؟ قال صوتٌ آخر.

حرّك رأسه، على نحو ينمّ عن الحيرة واليأس، لأنّه شعر بوشك انفجاره بالبكاء، أمام الكلّ، بشكلٍ مُخْجلٍ ومُذلٍّ. لكنّ فمه للغرابة، لم ينفجر سوى بضحكةٍ هستيريّة، خفّف بها - مرغماً - عن تروّع نفسه، التي وقعت في محنة كبيرة. طفق يضحك لفترة طويلة، ويرتجف بجميع ما فيه، بينما جذعه ينحني، باتّجاه فراغ النّهر. وهنا، أخذ الجمع، الذي لم يدرك أيّ شيء، ممّا حلّ بالسّيد كولوجا، يُصفّق له ثانيّة. شعر الجميعُ بالذّهول، لرؤيته في اللّحظة الفارقة، يقوى على السّخرية من حياته وموته أيضا.

وإذا بالسّيد كولوجا، الذي تبيّن بالكاد ملامح تلك الحشود الغائمة، وهي تدنو منه وكأنّها موجة عاتية، يداهمه الخوف، ويشعر بأنّ مِشَدّات سرواله الحديديّة، تمزّق أحشاءه. فتهيّأ للإقرار علانيةً، بهلعه وهوله،

والتّوَسُل الى الجميع بأن يغفر له عدم رغبته التّامة في الموت. لكنّه، وقبل أن يفلح في الإفصاح، عمّا قرّ في دخيلة نفسه، وإخراج ولو كلمة واحدة من فمه، ترنّح على حين غرّة، ولم يلحق باستعادة توازنه، ولا استرجاع اتزان جسمه المعوجّ كلّه، في المكان والزمان، إلا بعد تحريك ذراعيه الطّويلتين في الهواء، بشكل يائس ومثير للسّخرية والضحك. ثمّ قال في همسٍ، وقد فتنته هذه النّهاية: «ثمّة إله!...».

لكنّ قدمه اليسرى زلّت في اللّحظة ذاتها، فاندهش للغَدْر الذي مكرتْ به نَعْلا الحذاء السّوقي المصنوع من الكاوتشوك، فقال بمرارة: «ما ثمّة شيء!...». لكنّه لم يعد يقوى تماما، على تمالك أمره.

لكنّه، لمّا هوى برأسه الى الأمام، رأى تحته البحرَ فسيحاً، يتربّص به، ويجتَذبُه الى أعماقه الزّرقاء، التي ظلّت تنتظره فيها سماواتٌ لا حدّ لها، ونجومٌ منيعةٌ تنبض بالغُبار الأحمر، الذي يضيء له طريقَ الهبوط، نحو ذلك الجمال الذي لم يره قطّ من قبل، ولا شكّ أبدا في وجوده، حتّى إنّ شتيمته المهولة للعالم، الذي يفارقه، سرعان ما خبَتْ في وعيه، في تلك الأثناء.

على هذا النّحو، تابع الجَمْعُ الحاشدُ مشهد السّيد كولوجا، وهو يقفز من الخلف بيأس بالغ، ويحوم حول نفسه كالبَهْلوان، بينما جسده يتمَوّج في السّماء، ثمّ يرقّ كالقَوْس بعد ذلك، وكأنّ شيئاً ما فاجأه، في تلك اللّحظة الطّويلة التي لا تصدّق؛ أو أنّه كان يبحث فقط، عن طريقة تمكّنه من الطّيران، ضمن رغبته الأخيرة في البحث عن كيفية، يسخر بها من الآخرين، مرّة أخرى.

وفي غمرة الصّمت المطبق، الذي ران على المكان بشكل تامّ، لم تصدر عن أيّ أحدٍ حركةٌ، ولا كلمة. وإنّما مكث الجمعُ جامدا ومتقطّعَ الأنفاس، بفعل تلازم مشاعر الفرح بمشاعر الترقّب. إلاّ أنّ جسد السّيد كولوجا، سرعان ما

انتهى بالسّقوط في مياه النهر (وكأنّه حجرٌ قذف بها أحدهم بقوةٍ، من مكان عالٍ!)، في اللّحظة التي بدا فيها، بأنّ معجزة ما قد يمكنها أن تتحقق، ربّما.

نهض المسنّون من مقاعدهم، ورسموا على صدورهم علامة الصّليب. ورمت النّساء أزواجهنّ بنظرات فيها ازدراء، نكّس على إثرها الأزواج رؤوسهم، وأدركوا منذ تلك اللّحظة، بأنّهم سيضطرون الى الزّيادة في تقديرهم وإعجابهم لهذا الغريب، لأنّ مصيره الذي يحسدونه عليه سلفا، أجبرهم على النّظر بقوة في الأخير، الى تفاهة حياتهم. بينما استمرّ الأطفال في قضم التفّاح، وداعبت بعض النّسوة الحوامل في فخر واعتزاز، بطونها المنتفخة براحة الأيدي.

- وماذا لو أنّه كان يتقن السّباحة؟

صاح أحدهم، قائلا بعد ذلك، فاندفع على إثر هذا، عدّةُ أشخاص في اتّجاه حاجز الجسر. أمّا أولئك الذين وقفوا فوق حافة النّهر، فركضوا على امتداده. إلّا أنّ القامة الطّويلة للسّيد كولوجا، سرعان ما طفَتْ لبرهة على السّطح، ثمّ اختفَتْ عن العيون، الى الأبد.

أولئك الذين شكّوا فيه، انتابهم الخجل. وأولئك الذين صرخوا من قبل، عادوا يصرخون من جديد، قائلين: كان السّيد كولوجا عند وعده. إنّه لم يخن توقُّعنا. بأعينكم رأيتموه يمضي الى الشّمال! فتداركه شيْخٌ من الشّيوخ، مصحّحاً: بل نحو السّماء! فلترقد روحه في سلام!

جدل الضّوء والعتمة

قراءة في تفاعل النقد الفرنسي

مع تحفة شيبّانوفيش الأدبيّة[1]

ميليفوج سريبرو[2]

1) الرواية الحدث:

هناك كتبٌ يتسنّى لها النجاح في فرض نفسها بسرعة على القارئ، بسبب ما تتضمّنه من خصائص أدبيّة رفيعة، وقوّة في البناء الدّاخلي نفّاذة، دون جهد خاصّ يضطر النّاشرون الى بذله، ولا دعاية ترافق صدورها. وتلك - لعمري - حالةُ كتاب: **فمٌ يملؤه التّراب**، الذي ما أن رأى النّور سنة 1975، في ترجمته

---

(1) العنوان الأصلي لهذه المقالة هو، حرفيّا: الأضواء والظلال [المحيطة] بتحفة أدبيّة: برانمير شيبانوفيش في المنظور النقدي الفرنسي، وقد فضّلنا تعديل هذه الصيغة لأسباب جمالية خاصة، لا تنفي العنوان الأصلي وإنّما تقوله بصيغة أخرى (المترجم).

(2) ميليفوج سريبرو Milivoj Srebro كاتب وناقد فرنسي من أصول يوغسلافية، ولد سنة 1957، وحصل على درجة الدكتوراه في موضوع: الأدب الصربي المعاصر من منظور النقد الفرنسي (1995)، وهو يشتغل حاليا في حقل التدريس الجامعي الفرنسي (شعبة الدراسات السلافية) بجامعة بوردو. من مؤلفاته النقدية: الرواية باعتبارها جنسا (1985)، الكاتلوغ البابلي الصغير (1991)، أنطولوجية القصة القصيرة الصربيّة (2003)، ببليوغرافيا الأدب الصربي الصادر بفرنسا (2004)، كتابات وصراخ أبارتايد (2005).

الفرنسيّة، حتّى تمّ تلقّيه بوصفه حدثا أدبيّا حقيقيّا سواء في فرنسا، سويسرا أو بلجيكا. ولأنّ النقّاد الفرنسيّين لم يكونوا مُهيّئين بما يكفي، لاستقبال مثل هذا النّوع من الطّرْفة الأدبيّة القادمة من دائرة الأدب السْلاڤـيّ، وهي دائرة كتابة لم يُكوّنوا عنها سوى بعض التصوّرات الغامضة، أو بالأحرى بعض الكليشّيهات النّمطيّة؛ فإنّ هؤلاء النقّاد لم يخفوا دهشتهم قطّ، بل ولا حتى إعجابهم، على إثر تلقيهم لهذا المؤلّف. وقد حصلت ثمّة بالفعل، ضمن سيل التّقريظ الجارف للرّواية، مبالغاتٌ وتجاوزات عادة ما تتّصل بطبيعة الخطاب الصّحفي، الذي انبرى يرحّب بهذا الكتاب المتميّز؛ فنال محكي شيبانوفيش بذلك، هو المؤلّف الذي تخلّق ضمن بيئة تخييليّة لم تكن مألوفة لدى هؤلاء إلا في النادر، الصدى الطيّب المستحقّ من القراء الفرانكفونيّين. وها هي ذي بعض الأقوال التي تشهد على ذلك، أقتطفها على سبيل التمثيل لا الحصر، من ريبرتوار الصّحافة الأدبية، للتذكير بما حصل وقتها: فقد كتبت المجلة الفرنسيّة لوماگازين ليتيرير Le Magazine Littéraire تقول: «إنّها رواية من تلك الرّوايات التي ترتفع بشكل مستحق، الى مراقي الآداب العالمية الكبرى، بالنّظر الى عمقها، وقوّة موضوعتها، وجمالية لغتها»[1]. أمّا في سويسرا وبلجيكا، فنعثر تقريبا على نفس التعليق الذي يطري على النص. فقد كتب أحد الصّحفيّين المكلّفين بالمتابعة الأدبيّة في صحيفة لوجورنال دو جونيف Le Journal de Genéve، يقول: «هذا المحكي المفعم بروح التأزيم والشبيه بالصّرخة، لا نظير له في ما يعرف عندنا من محكيات أدبية»[2]؛

---

(1) جان لوي كوفير J-L Kuffer: ثمانون صفحة أخّاذة، لوماكازين ليتيرير، ص 45، العدد 106، نونبر 1975.

(2) جورج نيفا Georges Nivat: فم يلوّه التّراب، جورنال دو جونيف، النسخة الصادرة بتاريخ: 17 يناير 1976.

بينما الناقد المكلّف بالصفحة الثقافية في جريدة نوتر تّونْ Notre Temps البلجيكيّة، فيخلص في نهاية مقاله، وقد تحمس غاية الحماس لهذه الرّواية، الى إضافة عبارات ما تزال غير معهودة لدى الصّحافة الفرانكفونيّة وقتها، حين اندفع يقول: «إنّي لأنصحكم به: ابحثوا عن هذا الكتاب، مهما كلّف الأمر، واقرؤوه! إنّه [النصّ الذي أرشّحه أنا لجائزة] الغونكور!...»[1].

بالفعل، أثارت هذه الرّواية القصيرة، لكنْ الغنيّة برموزها التي أضفت عليها طابعا غامضا وملغزا، فضولَ المؤوّلين لها والشّارحين لغاياتها ومقاصدها في البدايات الأولى لتلقّيها، بسبب طبيعة موضوعها الأصيل وغير المطروق سلفا: مطاردة البشر للبشر. فقد قرّر بطل الرّواية العودة فورا الى مسقط رأسه، حيث أراد التصرّف في موته الخاص، بمشيئته الخاصّة وباختياره وحرّيته؛ بعدما بلغ الى علمه، وهو نزيل أحد مستشفيات بلغراد، بأنّه سيموت عمّا قريب. إلاّ أنّ قصّة عودته، ستتخذ بشكل فجائي، شكلَ مطاردة غريبة ولامعقولة، بعد أن تنفلت من تحكّمه ورقابته، وتتخلّص من أي منطلق آخر ينتظمها: إذ ما أن يصل صاحبنا أطراف مونتنيغرو، حتى يغدو ضحية مطاردة لاحقه فيها حشد هائل من البشر، انطلق وراءه في هياج مستعر، دونما سبب واضح. إلا أنّ هذه الحكاية الغريبة ليست هي وحدها ما فتن النقّاد، وإنّما وقع ذلك منهم أيضا، أولا وقبل كل شيء، بسبب خصائصها الفنيّة المتميّزة، بما في ذلك أسلوبها الذي وإن كان غير متكلّف، فإنّه مؤثر مع ذلك، ومشحون بطاقة لغويّة داخلية غميسة؛ الى جانب سردها الدّينامي، الذي لا يكفّ عن شدّ القارئ من خناقه الى آخر نفس؛ وخيالها

---

(1) گي دينيس Guy Denis مقالة بعنوان: Mon Goncourt، نوتر تّون (بروكسيل) بتاريخ: 27 نونبر 1975. وتجدر الإشارة الى أنّ الناقد أورد في هذه المقالة، ملاحظة

المجنّح الذي تندغم بين عناصره تلك الصّور المأخوذة من الواقع، بأخرى ذات دلالات ميتافيزيقية؛ بطبيعة الشكل المتخذ - أخيرا - وغير المعهود من قبل، الذي يتأسّس على عملية تبئير دينامية، منحت المحكي إيقاعا من طبيعة خاصة جدّا.

2) «إجادةُ حاذق» وتحدّ مرفوعٌ من النقّاد:

إنّ مؤلّف **فمٌ يملؤه التّراب**، بوصفه عملا روائيّا متعدّد الأوجه، هو كتاب إبداعي بالغ البراعة والدّقة، وقادر بهذا ليس على شدّ الانتباه بسحره الأخّاذ فقط، وإنّما على الإيقاع بالقارئ في الشّرَك أيضا، «بسبب تركيبة سرّية يصعب علينا الإحاطة بمنطلقها»، مثلما لاحظ ذلك الناقد الفرنسي ريشار گارزارولي Richard Garzarolli[1]. ومع هذا، فإنّ هذه «التّركيبة السرّية» المميّزة لرواية شيبانوفيش، عوض الحضّ على التوجّس والرّيبة، ما فتئت تحثّ النقادَ بالأحرى على الفضول، مثلما يبدو لنا. فقد رفع الناقد جان لوي كوفير Jean-Louis Kuffer التحدّي، بوصفه من بين أوائل هؤلاء، وهو مأخوذ بالإغراء الذي مارسه عليه هذا «الكتاب المدهش»، بل حتى وهو مفتون به ومتيّم. ففي مقالاته الثلاثة التي نشرت في مجلات أدبية مختلفة[2]، (ما يدلّ بوضوح على السّحر الذي مارسه هذا المحكي الرّوائي على صاحبنا!)؛ يحاول كوفير رسم الخصائص «السرّية» لهذه الرواية، بكيفية مجملة. ويشير في مقدّمة تلك الخصائص الى الطّبيعة الكونيّة، لموضوع هذه

---

(1) ريشارد كارزارولي: محكي أخّاذ لشيبانوفيتش، صحيفة: تريبين لوماتان Tribune Le Matin، بتاريخ 29 شتنبر 1975.

(2) جان لوي كوفير: كتاب برانيمير شيبانوفيش المدهش، مجلة روفيزور Revizor، ونبر دجنبر 1975؛ ثمانون صفحة أخّاذة، مجلة لوماغازين ليتيرير La Magazine Littéraire، نونبر 1975؛ تحفة برانيمير شيبانوفيش الأدبية (دون تاريخ).

الرّواية: وضع الإنسان التراجيدي، وسط عالم مؤَسَّس على الإكراه، يفرض على المرء اختيارين (لا ثالث لهما!): إما أن يُطارِد أو يُطارَد؛ وهي الموضوعة التي تدعونا، بعد أن صيغت على شاكلة قصّة جذابة تأخذ الألباب، «الى التأمّل في دلالة الوجود الإنساني، الذي يدفع بالمرء الى الانخراط في سلسلة من الأسئلة الجوهريّة المتّصلة بالأدب، في كل الأزمنة والأمكنة»[1]. وتبلغ هذه الموضوعة الكونيّة مع شيبانوفيش بالطّبع، مبلغا يبصمها ببُعد خاص وتركيز من نوعية متفرّدة، وذلك وفق رؤيته الخاصّة للعالم. لقد نجح الكاتب (حسب ما يشير إليه جان لوي كوفير)، حين صاغ حكاية غير مألوفة، في إيجاد توازن رائع بين البُعد الواقعي والخرافي ذي الطّابع الميتافزيقي؛ وهو التوازن الذي سمح بالجمع بين البُعد الفنطاستيكي النّابع من الرّموز التمثيليّة والكنائيّة والصّور الشّعرية، وبين «الواقع الملموس وشديد البروز» في الرواية.

إنّ هذه العمليّة التي ربطت مؤلّفَ **فمٌ يملؤه التّراب** بـ «الواقعية السّحرية» بصلات وثيقة جدّا، تبدو بحسب جان لوي كوفير، في التناسب الأتمّ والتوافق الأكمل مع الصّوغ الفنّي، الذي وقع عليه اختيار الكاتب. فالمطاردة المسكونة بالسُّعار يتمّ تقديمها في الرّواية، وبكيفية ملموسة، من خلال وجهتي نظر متعارضتين، يقع بينهما التناوب على امتداد النصّ: وجهة نظر الصيّاديْن، ووجهة نظر الطّريدة. ولتوجيه أيّة حكاية تتحرّك بين البُعد الواقعي والأفق الخيالي بشكل نوّاس، مثلما يقول جان لوي كوفير دائما، يبدو من الواضح أنّ اختيار هذا الشّكل القائم على التناوب، وهو الشكل الذي يذكّرنا بفولكنر في مؤلّفيْه **قصص قصيرة ونخيل متوحش**، كان مناسبا بشكل تامّ. ذلك أنّ تناوب الفقرات السّردية فيما بينها، لم يكن مجرد تغيير في

---

(1) كوفير: تحفة برانيمير شيبانوفيش الأدبيّة.

عملية التبئير فحسب، وإنّما هو إجراء استهدف تحقيق غايات جدّ بعيدة. فقد أعطى ذلك للمؤلّف الرّوائي زخما تعبيريّا كبيرا، و«مرونة رائعة»، وخلق في نفس الآن الإيقاع الدّاخلي الذي يتحرّى، عبر عمليات تسريع مفاجئة وعودات أخرى الى الوراء، تحقيقَ التقدّم في الكشف عن الأبعاد السيكولوجية «بكيفية تشدّ الأنفاس». إنّ نتيجة هذه العملية و«جمالية التعبير الشعريّ عنها»، هما شيء مبهر غاية الإبهار، مثلما يخبرنا جان لوي كوفير: «إنّ **فم يملؤه التّراب** عملٌ أدبي يقدّم نفسه في النهاية، بوصفه قصيدة عن الوجود في غاية الرّوعة!»[1].

ولا يقلّ تأثّرا گي دينيس Guy Denis عن سابقه كوفير، بمهارة شيبانوفيش وحذقه في خلق بنية سرديّة قائمة على «المونتاج الذي يجمع التوازي المتعدّد الدّوال». لكنّه يلفي فرادة هذا «الكتاب الخارق للعادة»، في موضع آخر: إنّ **فم يملؤه التّراب** عمل أدبي عصيّ جدّا على الحصر في دائرة جنس أدبي محدّد، لكونه يمزج من جهة بين ثلّة من الأجناس، ويمنح قارئه من جهة أخرى تشكيلة كاملة من الموضوعات، قصد التأمّل فيها، والتدبّر في معانيها. فهل الأمر يتعلّق بقصّة خرافية conte، أم بحكاية رمزيّة allé-gorie، أم بأمثولة parabole؟ ويقدّم گي دينيس إجابة غامضة عن هذا السّؤال، لكنّ لها أهمية خاصة. فالحكاية التي تبحر بمهارة بين مجرى الواقعي ومجرى الفنطاستيكي، ليست حكاية محتملة بصفة تامة، ولا غير محتملة بدقّة، وإنّما تنتسب ربّما الى «مدرسة الغريب (اللاواقعي وغير اللاواقعي)»، أو الى «مدرسة القصّ الخرافي الشّرقي»، أو لـ «قصيدة النثر» أيضا. وحتى يزيد النقّاد في اضطرابهم، هنالك هذه النّزعة الترميزيّة الأخّاذة، التي «تقنع القارئ بأنّه انتهى في الأخير، من قراءة عمل أدبي سحري...».

---

(1) كوفير: ثمانون صفحة أخّاذة.

أما على مستوى الثيمات الفكريّة، التي تتشابك ضمن مسار هذه الرّواية القصيرة، وتستدعي من القارئ بعض التأمّل والتبصّر، فإنّ گي دينيس يعتمد على تواطؤ القارئ، وقدرته على تمييز العديد منها، وهي ثيمات نجد أنّ من بين أهمّها (مثلما يقترح الناقد نفسه): التأمّل في طبيعة الموت الذي يقع عليه الاختيار، وإرادة انتهاك محظور الموت، والخوف مع القدرة، ومذاق الحياة والحبّ، وموضوع أصل الكراهية ونزعتها الجماعية، بصفة خاصّة. وقد أضاف نقادٌ آخرون الى هذه التشكيلة الثيماتيكية، التي يبسطها نصُّ **فم يملؤه التّراب**، موضوعات أخرى. فالثيمات الغالبة على هذه الرواية، بوصفها «إجادةَ حاذقٍ»، تتّصل بالنسبة الى فرانسواز ڤاجنير Françoise Wagener[1] قبل كلّ شيء، بمعضلة وحدة الإنسان، و«اقتران الذات بالعالم»؛ بينما يلحّ جان بابتيست مورو Jean-Baptiste Mauroux[2] بالأحرى، على ثيمة التكفير والخلاص والانتشاء والتّطهير، الى جانب «الكيمياء الذهنيّة التي تنسج بين جميع تلك الثيمات، صلاتٍ ذات طبيعة سرّية وملغزة».

وحتى يحيط هذا الناقد بأسرار تلك الصّلات الملغزة، عمد الى عقد مقارنات من نوع جريء وغريب. فقد عثر جان بابتيست مورو في **فم يملؤه التّراب** (وكأنّ هذه الرّواية لوحة فنّية!)، على الألوان التي تطبع بشكل خاص صباغة بول كلي Paul Klee الفنّية، وفان غوغ Van Gogh، ولوي سوتير Luis Soutter كذلك. وبهذا، صار «العالم الذهني» للمُطارَد يصطبغ - حسب نفس الناقد - بألوان بول كلي، بينما تشبه نهاية المطاردة بالأحرى «تيه

---

(1) فانطاستيك ببلغراد، صحيفة لوموند، بتاريخ: 1 يناير 1976، ص: 16.

(2) رجل مطارد وسيموت يبلغ لحظة الانتشاء المادية، مجلة لاكانزين ليتيرير La quinzaine Littéraire، ص: 1/ 15 العدد 226 فبراير 1976.

فان غوغ المصطبغ بالأحمر والأزرق»، أو هي تشبه «مشهدَ رقصِ الباليه على مغارة الأحلام، المرسوم بالحبر والسّخام»، كما وقّعه سوتير. والى جانب هذا، ثمّة جزئيتان أخريان لاحظهما نفس الناقد، تفرضان ذاتهما بطرافة مثيرة للفضول: فجان بابتيست مورو يرى في موقف إرادة الحياة، الذي أعلن عنه البطل المُطارَد، «مغالاة من طبيعة نيتشوية»، مثلما يرى على وجه البطل رمزا ذا دلالة خاصة، في قوله: «لا ترتسم على وجه البطل بصفة مطلقة، انقباضة المسيح التي تشي بالألم، وإنّما ابتسامة بوذا»!

بينما يتناول بقية النقاد الآخرين مؤلّف **فم يملؤه التّراب**، كلٌّ بحسب زاوية نظره الخاصة. ولنقدّم الآن تلخيصا لوجهات نظر هؤلاء ولأفكارهم: بالنسبة الى جورج نيفا Georges Nivat[1] مثلا، فإنّ رواية شيبانوفيش هي «حكاية ميتافريقيّة»، تذكّر قارئها بشكل يقيني بمؤلفات ألبير كامي A. Camus، إلا أنّها تعدّ بكيفية أساسيّة بمثابة مؤلّف أصيل وغير مسبوق في تأليفه، فهي «نشيد فريد من نوعه، فذٌّ ومتفرّد ربّما، في مجموع الآداب العالمية المعاصرة». أمّا روبير نيتز Robert Netz وساندا ستولوجان-San da Stolojan فإنّ كلاّ منهما يقرأ رواية **فم يملؤه التّراب** بطريقة تختلف عن الآخر، رغم الذائقة المشتركة بينهما. فهذا المحكي بالنسبة الى نيتز، نصّ «تأمّلي في الموت الذي هو دائم الحضور omniprésent بيننا»، وهو كذلك حكاية استعارية قويّة في موضوع «انتصار الموت»[2]. في حين لا تنكر ساندا ستولوجان هذا الحضور القويّ للموت، إلاّ أنّها تضيف على سبيل الإشارة، بأنّ ركض الطّريدة المتسارع وغير المتوقّف، الذي تنقطع فيه الأنفاس، هو

---

(1) معطيات سابقة.

(2) روبير نيتز: انتصار الموت في تحفة برانيمير شيبانوفيش الأدبيّة، صحيفة 24 ساعة، بناريخ: 10 نونبر 1975.

بمثابة ذلك الرّكض الذي «يجسّد بكيفية بديعة، حياة المرء المتّجهة رأسا صوب الموت!». إلا أنّ الناقدة تشير بكيفية كبيرة الى الجانب الذي يحتفي فيه «الإنسان بشغف الحياة»، في الرّواية[1].

وفي الأخير، هنالك أسلوب شيبانوفيش الأدبيّ، الذي هو «تلك القوة التعبيريّة الكبرى»[2]، التي حرّكت الاهتمام كذلك، واستثارت في بعض الأحيان حماسة النقّاد؛ خاصّة تلك النبرة المحايدة التي ما تنفكّ تخلّف - بكيفية مفارقة! - الانطباع، الذي يُشعر القارئ بقوّة داهمة تجرفه. إنّ جمالية الأسلوب في **فم يملؤه التّراب**، تنبع تحديدا بالنسبة الى ساندا ستولوجان، من هذا الأسلوب الفنّي «المحايد والمتكتّم وغير المتكلّف»[3]. ثمة يقينا جمال خارقٌ في ذلك الأسلوب، لكنّ فيه أيضا قوة (يضيف جورج نيفا من جانبه)، وهي القوّة الكامنة في كون هذا الأسلوب «لا يقول أكثر مما يقوله»، يوضّح ناقدنا[4]. لكنّ برنار دو فلافينييه Bernard De Flavigny[5] كان بلا ريب، الأكثرَ تأثرا بـ «القوّة الشعرية التي لا تخضع لعناصر التجميل والتخضيب»، المميزة لأسلوب هذا النصّ الرّوائي، ما يجعل منه نصّا لا يلبث أن يغمر قراءه بـ «دَوار مذهل!».

---

(1) ساندا ستولوجان: فم يملؤه التّراب، مجلة: دفاتر الشرّق Cahiers de l'Est، العدد 6 دجنبر 1975.

(2) ألبير كامي: اسم يتعينّ الانتباه إليه، مجلة: تعاون Coopération، نونبر 1975.

(3) ساندا ستولوجان، نفسه.

(4) نيفا، نفسه.

(5) برنار فلافينييه: دَوار مذهل، صحيفة لوكوتيديان دو باري Le quotidien de Paris، بتاريخ 30 دجنبر 1975.

3) بين «سوء الفهم الكاميزي[1]» والأمثولة الإنجيليّة:

من بين القراءات التأويليّة التي خضعت لها رواية **فم يملؤه التّراب**، وتستحق التوقّف عندها مثلما يبدو لنا، وإيلاءها مكانة خاصّة تليق بها في هذه المقالة، بحكم كونها من القراءات التي لا ينقصها الوضوح الذهني، ولا الخيال أو الجرأة: قراءة كلود ليبا Claude Lesbats[2]. ويتعلق الأمر هنا، فعلا، بدراسة نقديّة تحليليّة تركّز على قضايا محدّدة، وقع عليها اختيار الناقد، لكنها تسلّط مع ذلك ضوءا نقديا مختلفا على هذه الرّواية، يجعلنا ننظر إليها من زاوية أخرى مختلفة. ولأنّ ليبا يحيط إحاطة كبرى بكافّة المؤلفات، التي أنشأها شيبانوفيش، فهو يرى بداية في **فم يملؤه التّراب**، إجراءا كتابيّا يقوم على تنظيم تقابليّ للمحكي (وهو الإجراء الملحوظ أيضا، على مؤلفات أخرى للكاتب!)، ليخلص الى أنّ الموضوعة المستحوذة على شيبانوفيش هي: قضية اندماج الفرد الذي غالبا ما يكون استثنائيا، وخارجا عن العادي في مجتمع ما؛ وهي القضية التي عادة ما تفضي الى مواجهة مفتوحة تقريبا، بين الشخوص الخارجة و«المارقة» وبين المجموعات التي تجسّد في أفعالها وردود أفعالها، قيم المجتمع المعني.

إنّ هذا الإجراء الذي ينسج الكاتب الرّواية على منواله، يمكن تفسيره (وفق ذات الناقد)، بكيفية مختلفة تنضبط للسّياق الذي وقع عليه اختيار أيّ مُؤوّل. فمثلا، يمكن لهذا النصّ أن يعتبر بمثابة متغيّر من المتغيّرات المُعدّلة من «الخطاطة الرومانسية، التي تضع الأبطال في مواجهة عمى مجتمع

---

(1) كاميزي camusien نسبة الى Camus (ألبير كامي).

(2) كلود ليبا: طرق الحكي وأصوات الصّمت، ضرورة الأمثولة في فم يملؤه التراب، مجلة: ميكراسيون ليتيرير Migrations Littéraires، باريس، العدد 8 ربيع 1989، من ص: 85 الى 91.

رذيء»، أو يعتبر مثلا على أنّه «شكل أدبي وُضِع لخدمة قضية إثبات الذات الفرديّة»، التي تستهدف الطّعن في القيم الجماعيّة المتكلّسة والمتجاوزة، التي لها علاقة خاصّة بالبلد الذي وُلد فيه الكاتب؛ أو يعدّ مثالا توضيحيا لإحدى الموضوعات الوجودية بامتياز: «سوء الفهم». لكنّ ليبا ما يفتأ يحذرنا هنا، بأنّه يتعين علينا أن نتعامل مع جميع هذه التأويلات، بنوع من الحيطة والحذر. لماذا؟ لأنّ «التنظيم التقابلي للمحكي، حين يخفي جميع ما قد يكون النصّ قد راهن عليه في الأصل، ألا يقوم مقام الفخّ؟»[1] . لذا، يقوم ليبا باستقراء فاحص للقراءة التأويليّة التي يمكن للقضية الرئيسيّة لـ **فم يملؤه التّراب** أن يعدّ وفقها مجردَ مؤلف، يطرح قضية وجوديّة تتصل بمعضلة «سوء الفهم»؛ ومن ثمّ، يضيف ليبا على سبيل الملاحظة: يتعلّق الأمر هنا، بفخ يمكننا السّقوط فيه بسهولة، إذا أهملنا «التنظيم التقابلي للحكاية». ذلك أنّ الكاتب في الحقيقة، لا يلبث أن يبعدنا عمداً عمّا هو جوهري في النصّ، حين لا يكفّ طيلة المؤلّف عن الإلحاح على «سوء الفهم الكاميزي» بقوّة، لأنّ «مصير تلك الشخصيات (مثلما يوضّح ليبا)، لا يرتهن بما سينجم عن مطاردة ذات طابع قصصي، بالكل. إنّ ما وقع عليه الرّهان هو مدبّر سلفا، مثل ما يقع في النصوص التراجيدية القديمة!...»[2].

كما يضيف كلود ليبا أيضا، بأنّ خصوصية **فمٌ يملؤه التّراب** تدين الى بُعدها الرّمزي: إذ يبدو بأنّ الكاتب قد أنشأ محكيه على نموذج «الأمثولة الإنجيليّة». ولكي يعزّز ناقدنا هذه الخلاصة، يشير الى أنّ نصّ الرّواية يتضمّن عناصر عديدة ذات علاقة وثيقة بعالم الأناجيل. ففي بداية ذلك، يشدّد ليبا

---

(1) نفسه، ص: 85.

(2) نفسه، ص: 87.

على رمز له طبيعة إيحائيّة: الشّهاب البارز في مستهلّ النصّ الروائي، وهو ما يمكن تأويله على «أنّه تعيين من السّماء لمن سيتولّى تبليغ رسالة ما، الى دهماء البشر»[1] . وبعد ذلك، يؤكّد الناقد على موضوعة مسيحيّة أخرى بامتياز، هي: «الانتصار على الموت»؛ فهذه الموضوعة التي تمّ توسيعها ضمن قصّة ثانوية في النصّ («انبعاث» يوكسيم، الجدّ الأعلى للبطل المُطارَد)، هي مع ذلك ذات طابع وظيفي كبير للغاية، على مستوى بناء النصّ ككل. ثم هناك على الخصوص تلك الصّورة، التي انتهت بها الرّواية: صورة المطارد الممدّد فوق الصّخرة، التي تُذكّر بشكل قوي بصورة «السّيد المسيح وقد ارتقى جبل طابور». إنّ بطل الرّواية يخلق الانطباع في الأخير، بكونه «حامل رسالة وفد من مكان بعيد»، بجسده العاري الممدّد، و«ابتسامته الملغزة والغامضة».

لكنّ **فمٌ يملؤه التّراب** لا تتّبع بكيفية عمياء، خطاطة الأناجيل. ذلك أنّ أصالتها إنّما تكمن بالتحديد، في الاختلاف القائم بينها وبين تلك الخطاطة النّمطية. وبهذا الاختلاف بالذات، يتمكّن الكاتب من منحنا، حين يستعمل الصّور المستقاة من الأناجيل، تصوّرَه الخاص بشأن المصير الإنسانيّ. ولهذا السبب، يذكّرنا ليبا بأنّ التماثلات القائمة بين كلا العالمين: عالم شيبانوفيش الرّوائي وعالم العهد الجديد، ينبغي أن تخضع لتأويل دقيق للغاية، من منطلق «الحدود التي تسمح بها الإستعارة». إذ الاختلاف بين العالمين، خارج دائرة الإستعارة، هو اختلاف جوهري جدّا. وأقوى حجّة على هذا وأهمّها، هي النهاية التي تنتهي بها الرّواية. فبينما «تنتهي الأناجيل بنهاية يتحقّق فيها البعث، الشهادة والكلام، ينتهي محكينا الرّوائي بتصوّر تتمّ فيه رؤية العالم، وقد غرق في العتمة (...)، وسيطر عليه الصّمت كذلك[2]. إلاّ أنّه صمت

---

(1) نفسه، ص: 90.

(2) نفسه، ص: 92.

أقوى وأبلغ تعبيرا من كافّة الألفاظ، مثلما يتسنّى للفرد أن يضيف، وهو يماشي روحَ القراءة التأويليّة التي قرأ به كلود ليبا، نهاية الرّواية.

الفهرست:

تقديم المترجم 5

فمٌ يملؤه التّراب: رواية قصيرة..... 11

موت السيد كولوجا: قصّة طويلة..... 75

جدل الضوء والعتمة (دراسة)..... 113

فم يملؤه التراب

تُعدّ فمٌ يمْلؤه التّراب بحق، عملاً تخييليّاً مدهشاً، وتحفةً أدبيّة متكاملة الأوصاف، سرعان ما تلقّفها القُرّاء بشدّة وإعجاب، فصدرتْ في أكثر من طبعة محلّية، ثمّ امتدّ تلقّيها الى أبعد من حدود يوغوسلافيا، بفضل ترجمتها الى لغاتٍ أجنبيّة عديدة؛ لما تحمله هذه النّوفيلاّ المكثّفَة والغنيّة، من عناصر القُوة والنّضج الكبيريْن، وما تحمله من تمثلاتٍ غامضةً عن الإنسان والعالم والوجود، تتجاوز الحدود الجغرافيّة لبلدها الأصليّ، وتمنحها أفقاً كوكبيّاً خالصاً، يتّصل رأساً بالوَضْع الإنسانيّ قاطبة

"إنّها رواية من تلك الرّوايات التي ترتفع بشكل مستحق، الى مراقي الآداب العالمية الكبرى، بالنّظر الى عمقها، وقوّة موضوعتها، وجمالية لغتها"

مجلة لوماگازين ليتيرير **Le Magazine Littéraire**

"هذا المحكي المفعم بروح التأزيم والشبيه بالصّرخة، لا نظير له في ما يعرف عندنا من محكيات أدبية"

صحيفة لوجورنال دو جونيف **Le Journal de Genéve**

ISBN 978-603-91686-1-4

9 786039 168614 >

أثر

تصميم الغلاف : أحمد الصباغ